المقتطف

الجزء الرابع من المجلد الثامن بعد المائة

١ ابريل سنة ١٩٤٦ — ٢٩ ربيع الثاني سنة ١٣٦٥

حوت العنبر

Sperm—Whale = Cachalot.

Tech. Syn. Physeteridæ (fam). Physeter (Gn.). Ph. macrocephalus (Sp.).

حوت العنبر Sperm-whale وأصطلاحاً العنبر الكَرّوس أو التفاخ الكروس والثاني أصلح علميًّا ولغويًّا Physeter Macrocephalus أو كما يسمى في الكلام الجاري « القشلوت » أخذاً من الدارج في الفرنسية Cachalot ، من أضخم الحيتان ، فهو يناهز في الضخامة الحوت الغرينلندي أي حوت الخضراء . غير أنه قد بولغ في أبعاد حجمه مبالغة كبيرة ، كما اتفق أن بولغ في تقدير أحجام كثير من أجناس الحيتان ، ولو ان في الراجح أن هذا النوع ، وكان في الماضي أعظم عدداً وأذيع في البحار ، قد بلغ أفراده من الضخامة حدًّا لا يبلغه الآن . غير أننا نترك هذا البحث الآن ، ونكتفي بالقول بأن ذكر العنبر يبلغ من الطول حدًّا يتراوح بين ٥٥ و ٦٠ قدماً ، في حين أن الاناث لا تزيد على نصف هذا المقدار كثيراً ، وصدورهن أضخم وأكثر تناسباً .

أما خصائص هذا الحوت الجنسية Generic characteristic فتقع عليها في عظم الرأس وزيادته عما يجب أن تكون نسبته الى الجسم كله ، إذ يبلغ ربع طول البدن جميعه ، وفي عدد

(١) نقل من كتاب الحيتان تحت الطبع لهرو الفتاف ، وهو من تاريخ الحيوان الطبيعي مع معجم كامل بأسماء طبقاتها وهو أول معجم من نوعه في العربية .

الأسنان اذ تبلغ عشرين أو خمساً وعشرين على كل من طَوَارَي الضبَّة .

إن غلط حوت العنبر وسوء منظره ، انما يرجع الى انه أقطع الفكين على عظمه ، والتَطَعَ فيه حاد رأسي ، فكأنما خطمه جدار قائم ، وفي فتحة المنخرين إذ هي على صورة حرف S الانجليزي ، منحرفاً الى الجهة اليسرى من خط الوسط . أما الفم على إمعان فغرته في الطول والسعة ، فينفتح سفليًّا ، وعلى بعد ما من مقدمة الخَطْم

على السطح العلوي من الجمجمة تجويف عظيم يحدّه من الخلف عظم جداري طويل رأسي الوضع يكون في الحوت الحي مفعماً عادةً بفضاء دهنية مائعة تسمى « أَيَّلُ الحوت» Spermaceti وليست هي المعروفة باسم العنبر ، التي أخذ منها اسم هذا الحوت في العربية

وقد خلط بعض كتّابنا بين المادتين سهواً . ومن مقدمة هذا الفراغ أو التجويف يبرز منقار الحَكَمة (الفك الأعلى) وفي لَثته تندفن أسنان عِلبَّة — Rudimentary (أي أثرية). أما الضَّبَّة (الفك الأسفل) فبالغة الطول نحيلة الهيئة وشقَّتاها العظميتان ملتحمتان حذاء خط الوسط زهاء نصف طولها .

الأسنان العاملة كما أسلفنا تكون على الضبة منغرزة في حزّ طويل مقسم إلى وقوب بين كل وقب وآخر فاصل عظمي غير كامل ، وهي كبيرة الحجم ، فاذا لم تكن متأكلة ظهرت مدببة منحنية الأطراف . وهي تقوم على طوار الضبة منغرزة في حز طويل مقسم الى ما يشبه الوقوب بفواصل عظمية غير كاملة . وتتألف الأسنان من عاج خالص وتجويف اللب السني (Dental pulp cavities) الذي يكون عند قواعدها يظل منفتحاً زمناً طويلاً . بيد أنه قد يظل غير كامل الانسداد ، ان قليلاً أو كثيراً ، في عهد البلوغ حتى يشتد تسطح قواعد الأسنان من الجانبين . أما اللسان وداخل الفم فلونهما البياض الناصع ، ومحيط الزُّور كبير جدًّا . والعينان غير سويتين ، فاليسرى أكبر من اليمنى ، وتستويان فريق زاويتي الفم شيئاً مَّا ، وبمقربة منهما الى الخلف فتحتا الأذنين ، ويقال إن الواحدة منهما لا تتجاوز ربع سمة طولاً . عند التقاء الرأس بالبدن بروز ظاهر في وسط خط الظهر ، وفي منتصف المسافة بين هذا البروز والذنب نتوء كبير يتبعه عدد من النتوءات أصغر منه ويسمى عندنا السنام Hump وليس للعنبر زعنفة ظهرية ولا تزيد السباحة على ست أقدام طولاً وثلاث عرضاً ،

وأقصى ما يصل إليه محيط دائرة الذنب خمسة عشرة قدماً . لون العنبر إما السواد ، وإما السواد الى السمرة . في أجزائه السفلية ، تخف ظلال هذا اللون على الجانبين والأجزاء التحتية ثم تتدرج حتى يصير اللون أغبر فضيًّا عند منطقة الصدر . وقد شوهد بعض أفراد منه مرقطة اللون . أما الذكور العتيقة فكثيراً ما يتقلب لون خطومها ومقدم الرأس ، فيصير أغبر . وحوت العنبر ، إن كان من أهل البحار المفتوحة أصلاً فانه ينتشر في جميع المحيطات المعتدلة الاقليم . وفي أثناء الصيف يطوف في جولاته اتفاقاً وبين حين وآخر الى الشمال فيمعن فيه . اما أن للعنبر عادة الجولان والتنقل مسافات شاسعات ، فأمرٌ ثابت بالمشاهدة . فقد صيد في المحيط الاطلنطي أفراد منه وفي جوفها حراب تلقتها في أثناء جولة في المحيط الهادي . ساد الاعتقاد زمناً ما أنَّ العنبر من زوّار المياه البريطانية يزورها حيناً بعد حين . ولكن حدث في سنة ١٩٠٣ ان قنص خمسة عشر من النرويج وايسلنده وشتلند سبع طول بالغة في البحار الشمالية . وما هذا العدد بالضرورة غير جزء صغير من حيتان العنبر التي كانت ترتاد تلك المناطق الشمالية . وكان أول ما سُجِّل من صيد هذه الفحول في العشرين من شهر يونيه إذ صيد خلان من قطيع عظيم كان يحوم على الخط ٦٠ من خطوط العرض . وذلك يناهز خط العرض الذي تقع عليه جزائر « فارو » The Faroes . ثم قنص في نفس اليوم فحل يناهز طوله ٥٤ قدماً على بعد ٨٤ ميلاً شرقي الجنوب الشرقي من ريدرفورد — Ruidarfford (أو زقاق ريدر البحري) . ولم ير غيره من الحيتان هذه المرة . وفي السابعة والعشرين من ذلك الشهر صيد فحل ، كان مع جماعة من الحيتان عددها ثلاثة أو أربعة على ستين ميلاً جنوبي شتلند . وقيل إن هذا الفحل كان قد بلغ ٦٨ قدماً طولاً ، وأن محيط جسمه بلغ أربعين . اما إذا كان مقاس الطول قد أخذ في خط طولي وليس على امتداد القوس الظهري ، فذلك رقم قياسي . فان هيكل فحل العنبر المحفوظ في المتحف البريطاني للتاريخ الطبيعي لا يتجاوز طوله خمسين قدماً إلاَّ قليلاً .

وقد غلَّ ذلك الفحل ٥٣ برميلاً من الدهن فهو نظير الفحل الذي صيد بقرب من ريدرفورد من حيث ذلك . وحوت العنبر صواري العادات ، ويجتمع في رُعْلان : [illegible] اختلف عددها في الزمن الماضي بين خمسة عشر فرداً الى عشرين ، وقد بلغت بعض الأحيان

عدة مئات ، الفحول البالغة والاناث قسم ، والفحول الصغيرة قسم آخر ، والفحول الكبيرة كثيراً ما يقع بينها وبين صغار الفحول معارك دامية . وكان من المناظر العادية في بحار الجنوب أن ترى أرجال العنبر الكثيرة تحوم من حول السفن وبمقربة منها ، فتقترب من السفن الشراعية أكثر من اقترابها من السفن البخارية العظمى لأن صوت الآلات الهادرة يخيفها فتبتعد عنها .

جبهة كبيرة قطماء ، وجسم مستطيل لامع أزرق اللون الى الخضرة ، وفكان عظيمان ، وظهر مسنم ، وذنب مستدق الفلقتين يتمايل ، وبدن هائل الحجم ، وحركة متئدة هادئة ، وسبح النسيابي فيه جمال وفيه سكون ووقار يتفصد زفيراً من وقب النفث في فترات مطردة : ذلك هو منظر حوت العنبر إذا اتفق لك أن تراه يطوي أمواه المحيط الزاخرة . وحيتان العنبر ، إذ كثيراً ما تشاهد في البحار ، تكون في العادة متخفقة ممتها نحو بقاع من المحيط تكثر فيها الرخويات التقنات بها . فاذا شوهدت كانت على ما وصفنا في التؤدة والوقار ، فلا تدابر السفن كما تفعل البرابيز (الدواحر) ولا تنفر من حولها لاهية . وبين الاناث من أفراد هذا النوع كثير من الحدب والتعاطف ، فكل واحدة منهن تعمل جاهدة في سبيل حماية رفيقاتها وصيانتهن . أما صغارهن فحبيبات القلوب ، يلفهن الماء . أما اذا قتلت من قطيع إحدى الاناث فسهل على الحواتين صيد الكثير منهن ، لانهن جميعاً ينهضن الى مساعدتها والعمل على خلاصها . أما شباب الفحول ، وقد يشاهد أرجال منهم في فترات معينة ، فأقل قوة وشجاعة من الاناث ، فاذا جرح واحد منهم تركه رفقاؤه وخلفوه من ورائهم يصارع وحده القدر ولسان حاله يقول : أضاعوني وأي فتى أضاعوا .

في البحار يمكن اصطناع صوت العنبر وتمييزه عن غيره من الحيتان بانتظام الفترات التي يطفو فيها للتنفس ، ولو ان رتابة هذا النظام قد تختلف باختلاف العمر . يقول الكبتن إسكورن : إذا طفا فأول ما يظهر منه منطقة السنام ثم يرفع رأسه ، ثم يتنفس بتؤدة زهاء ثلاث ثوان ، مرسلاً الى الفضاء كمية من البخار مبيض اللون ينفلت فتنحرف الزاوية بشدة من وقب صغير . فاذا كنت على صاري السفينة رأيته من مسافة تتراوح بين ثلاثة أميال وخمسة . وعندما يغوص في التنفس منميلاً وعلى رسله . فانه لا يغيب في الماء بعض الاحيان . وقد

ينساب أحياناً أخر بسرعة تتراوح بين ميلين وثلاثة أميال في الساعة . فاذا أراد الانتقال من حقل غذائي الى حقل آخر تسارعت حركته . ثم يقول : عند ما ينساب حوت العنبر في حركة تقدمية ، فقلما يحتاج لغير برهة وجيزة ليتنفس ، فيغمر رأسه قليلاً ، ثم يختفي فجأة ثم يظهر ثانية لينفخ كما فعل من قبل ، فيحدث التنفس نظاماً رتيباً . أما عدد الزفرات عند ما يكون هذا الحوت في هدوء ، فيختلف تبعاً لحجمه . وكذلك فترات الطفو والانغمار ، فانها تتفاوت تبعاً لذلك . وأكبر الفحول لا تحتاج لأكثر من عشر الى اثنتي عشرة ثانية ليتم نفساً واحداً شهيقاً وزفيراً . أما عدد النفخات فمن ستين الى خمس وسبعين نفخة في طفوة لا يزيد مداها على اثنتي عشرة دقيقة . وعند الانتهاء من تلك النفخات ينحدر ومقدم رأسه الى أسفل ، ويدور رافعاً فلقتي ذنبه في الهواء حتى يصير جسمه في وضع رأسي تقريباً وينغوص الى أعماق بعيدة ، حيث يظل غائصاً زمناً يتراوح بين خمسين وخمس وسبعين دقيقة . ولا يسمع لزفيره صوت . وقيل إنه اذا سبح بطريقته المألوفة بحيث يكون سنامه فوق سطح الماء فان سرعته لا تقدر بأكثر من سبعة أميال في الساعة . ولكن اذا سبح ورأسه يبدو برهة ويختفي أخرى على التتابع فسرعته تتراوح بين عشرة أميال واثنى عشر في الساعة . وتلد أنثاه في كل فصول السنة فتضع فلواً واحداً ، ولكن من المعروف أنها قد تتئم فتلد اثنين : وقال ان فلو حوت العنبر يتراوح طوله بين ١١ و ١٤ قدماً عند الولادة .

غذاء حيتان العنبر الرئيسي يتألف من السبادج Squid والحبار الهلامي Cuttle ولكنه قد يلتهم أيضاً عدداً وفيراً من السمك مثل قد الصخور Rock Cod والبكورة Albacore والبينت Bonito جميع هذه الأنواع من الطعام يصيدها ذلك الحوت في الأعماق ، ولكن طريقة صيدها غير معروفة ويعتقد البعض أن الحوت إذا غاص ظل ساكناً ثابتاً في مكان ثم يدلي ضبته (فكه الأسفل) حتى تصير في وضع رأسي من مستوى رأسه ، فيظهر بذلك البياض الناصع الذي يغشى فجوة فمه العريض . فهو بهذا الفعل — على ما يروى — يجتذب نحوه الحيوانات التي يغتذي بها ، حتى إذا ما دخل عدد كاف منها في تلك الفجوة الكبيرة أغلق ضبته بسرعة فائقة . إذا جرح حوت العنبر جرحاً قاتلاً لفظ من فيه آخر ما التهم من الطعام . وتبدو شوكي بعض السبادج التي التهمها بعض الأفراد المصيدة بالغ الحجم بعضها

٢٨٠ قدماً مكعباً . وليس أدل من هذا على أقدار تلك السَّراجل Cephalopods التي تلتهمها تلك العالقة البحرية .

وتقتنص حيتان العنبر لشيئين فيها : الدهن الذي تحتوي عليه طبقات الشحم التي تغشى الجسم ، و«وأيّل الحوت» الذي يكون في تجويف الرأس . ولما كان ثمن الدهن المستخرج من حوت العنبر أغلى ثمناً من جميع أنواع الدهون الحوتية الأخرى ، كان هذا الحوت أثمن أنواع الحيتان جميعاً . أما الأيّل فأشبه بالزيت ، ويغترف في دلاء بعد أن تفتح الجمجمة . أما هذه المادة فتباع بعد أن تكرر وتصفى فتصبح صالحة للتجارة . والفائدة التي تعود على العنبر من وجود تلك الكمية العظيمة من الدهن المائع في تجويف رأسه ، أمرٌ لم يدرك منه المواليديون شيئاً حتى الآن . بالاضافة الى تينك المادتين يخرج التشلوت مادة أخرى هي العنبر أو بالتحقيق العنبر الاشهر Ambergeris - Grey amber : ولا تستخرج هذه المادة في العادة عند اقتناص الحوت ، بل يعثر عليها سابحة في البحار . وقد تحقق الباحثون أنها تتكوّن في أمعائه . وهذه المادة التي تحتوي على عدد من مناقير السادج والحبّارات التي تغتذي بها قد اتخذ منها مادة طبية . ولكنها تستخدم اليوم في عمل الروائح لا غير . وهي مادة غالية الثمن ويبلغ ثمن الأوقية الواحدة خمسة جنيهات انجليزية .

إناث هذا الحوت وصغاره من أشد الحيوانات حرصاً على الحياة . فاذا نشب في إحداها هلب أو ضربته حربة تشبثت بالحياة وعملت جاهدة على التخلص مما نشب بها .

وسرعة حركتها إذ ذاك تجعل اصابتها مرة أخرى من أشق الأمور . أما الفحول الكبيرة والاناث البالغة ، تلك التي تغل قرابة ثمانين برميلاً من الدهن ، فأقل نشاطاً وأهدأ حركة ، فقتلها أيسر وصيدها أمن مشقة . على أن هذه القاعدة غير مطردة دائماً . فقد حدث مراراً أن عنابر كبيرة قد ارتدت حانقة ثائرة على متعقبيها ، محطمة كل ما يصادفها في طريقها من الأشياء ، مستعدة من سباحاتها الهائلة سلاحاً تلطم بها كل ما يقع تحت ناظريها ، أو رأسها العظيم تنطح به ، أو ضيتها تفري بها الاشياء فرياً ذريعاً . وقد رويت وقائع عن عنابر وحيتان أخر لم يقتصر أمرها على تحطيم صغار القوارب التي تحملها سفن التحويت ، بل هاجمت السفن العظيمة نفسها وأغرقتها . ويعتقد الكاتب امكان أن السفن التي انقطعت أخبارها وفقدت من غير أن

يسمع منها خبر اغا أغرقتها الحيتان . ومما يروى عن شراسة العنبر وقوة بأسه ما حدث للسفينة سترن Citizen سنة ١٨٥١ عند ما خرجت لصيد الحوت في المحيط الاطلنطي . فان عنبراً جريحاً بعد أن حطم قارباً من قواربها ارتدَّ الى قارب آخر ، ولكنه انصرف عنه الى ثالث لفت نظره ، ولم يفلت القارب الثالث إلاّ بصعوبة كبيرة . فلما أفاق منه اتجه نحو السفينة نفسها ، وكانت قد نشرت أشرعتها ومضت بأقصى سرعة ممكنة . وبذلك تمكنت من أن تتفادى هجمة ذلك العملاق الأسود . وأخذ الحوت يستجمع قوته لوثبة أخرى على السفينة ، ولكن جرحه كان مميتاً فهدته سكرة الموت عن ملاحقتها . ويروى أن عنبراً آخر لم يكتف بتحطيم السفينة ، فأخذ يقضم خشبها ويلوكه بأسنانه ويعض فيه مضغاً .

أعظم من هذا كله ما وقع للسفينة « جزيرة هندا Handa Island » على ٢٢٠ ميلاً من ميناء سيدني بأوستراليا . ففي ٢٤ من اغسطس سنة ١٨٩٤ صادفها عنبران كبيران . فادرت هذه السفينة خليج مركوري Mercury Bay في نيوزيلندة وعليها حمولة كاملة من الخشب ، ولم يدر في خلد ربانها وبحارتها أن الحيتان ستهاجمها فلم يتخذوا لذلك العدَّة . هاجمها أحدهما وغاص من تحتها ، وتقدم الآخر فنطحها بقوة فائقة جعلها تدور على نفسها فأصبح حيزومها حيث كانت دفتها ، وأحدث بها ثقباً انحدر منه ماء أخذ يملأ فراغ السفينة بنسبة قدم ارتفاعاً في خلال ساعة .

اسماعيل مظهر

حكومة القساوسة Episcopal System.

(L. episcopatus = the office of a bishop).

٢ — حكومة كنسية رءوسها الأساقفة .

٢ — نظام الحكم الكنسي ويتألف من ثلاث مراتب : (ا) الأساقفة Bishops (ب) والقساوسة Priests (ج) والشمامسة Deacons . وكل مرتبة منفصلة عن الأخرى ، ولطبقة الاساقفة السلطة العليا فيه . ولهم وحدهم قوة اصدار الاوامر

البراءة البابوية — Papal Bull

(L. bulla) A boss, knob, stud, bubble, etc.

أعظم الوثائق الرسمية التي يصدرها البابا ، أو التي تصدر باسمه . وهي غالباً كتاب غير سري ، يتضمن مرسوماً أو أمراً أو حكماً ، إما لتشريف شخص ، وإما لاقامة العدل وإما للفصل في أمر .

وأخذ الاسم (Bull) من ختم الرصاص يعلق في الوثيقة بخيط أو شريط . فاذا كانت الوثيقة للتشريف ، كان الخيط أو الشريط أحمر أو أصفر ، واذا كانت لاقامة العدل ، كان من القنب خاصة ، غير ملون بلون . ويتناقش على أحد وجهي الختم اسم البابا ، وعلى الوجه الآخر رأسا القديسين : بطرس وبولس .

وتكتب البابوية باللغة اللاتينية ، إما بالخط المتصل الحروف ، وإما بالخط القوطي المستدير الحروف ، على ورق من الكتان مختوم بختام أحمر مستدير ، يتضمن اسم البابا ، وفي وسطه صور تمثل وجوه الرسل .

وقد سميت « للرصوص البابوي » أخذاً من كلمة « رصاص » إشارة الى ختام الرصاص الذي يعلق بهذه البراءة .

الرموز العلمية

وتغييرها في العربية

أثارت مسألة تغيير الحروف العربية بالحروف اللاتينية ضجة في البلاد العربية ، فانشق القوم اثنين ، قوم يحبذ الفكرة ويؤيدها ، وآخر يستنكرها ويعارضها . قد يكون كل فريق على حق ولكنني لست في صدد تبيان أيٍّ على حق .

أما ما أريد أن اقترحه فشيء لا يمس اللغة لا في حروفها ولا في قواعدها ، بل شيء يخص العلم من حيث الأرقام والرموز وغيرها . أريد أن نكتب المعادلات الرياضية والطبيعية والكيميائية وغيرها على الطريقة الغربية ، أي أخذ الحروف اللاتينية واليونانية التي ترمز الى كميات وإعداد واستعمالها في المعادلات للفروع العلمية المذكورة آنفاً وأخذ الأرقام الهندية العربية أي التي يستعملها الغربيون الآن والتي لا تزال تحمل الاسم العربي أي « الأرقام العربية Arabic Numerals » .

إن استعمال هذه الطريقة على النحو المقترح عليه أمرٌ مهم في سبيل العلم وتقدمه في بلادنا ، إذ أن طرق كتابته تختلف كل الاختلاف عن الأدب والتاريخ والفلسفة .

إن الكتب العلمية عند الأمم اللاتينية والجرمانية يستعمل فيها الحروف اليونانية كبيرها وصغيرها (١) ، كما تستعمل طبعاً الحروف اللاتينية كبيرها وصغيرها في كتابة المعادلات وايضاحها . ولهذا نجد أن الحروف العربية لا تسد حاجتنا من هذا القبيل . وإذا اقتصرنا عليها يشكل علينا الأمر لكثرة الكميات والأعداد المرموز اليها بحروف . فمثلاً لو ترجمنا كتاباً في نظرية « المقدار » أو في « ميكانيكية الأمواج » قد نحتاج الى استعمال حرف « هـ » مرتين بينما في الكتب الغربية « h » هما رمزان لكميتين مختلفتين ، نرى ان استعمال الحروف حتى ولو قاربت الثمانين أمرٌ يهون علينا تفريق الكميات والرموز ولو انه يزيد في تركيب المعادلات ، ولكن هذا التركيب لا يهم الباحثين في العلم ، وان هذا الأمر يسهل علينا

(١) Capital letters and Small letters

مراجعة ومقابلة الكتب الغربية على اختلاف أنواعها . وأني استشهد بحضرة الدكتور علي مصطفى مشرفه بك كما اني آمل ان يؤيدني في اقتراحي هذا . ان حضرته في كتابه « النظرية النسبية الخاصة » قد استعمل الحروف اليونانية التي ترمز لبعض الزوايا فحضرته لم يجد مناصاً من ذلك . وكم كان سهلاً لو استعمل القسم الرياضي في ذلك الكتاب على الطريقة الغربية إذن لأصبح أسرع الى الفهم ، وأقل عناء للواضع ، فذلك القسم يستعصى فهمه حتى على أكثر الخاصة من الناس فلا يفهمه إلاَّ الراسخون في الفهم .

ان الطريقة الغربية في كتابة المعادلات تسهل علينا كثيراً من جهة النقل والتأليف والفهم وتقدم العلم بيننا ، نحن متأخرون جداً من هذه الناحية والكتب العلمية البحتة تكاد تكون مفقودة بلغتنا ويرجع السبب في هذا الى صعوبة نقل الرموز وتفسيرها ، أو ايجاد ما يقابلها بلغتنا ، واننا نعلم في هذه الأيام مقدار أهمية العلم وما نصيبه في هذه الحرب

أود أن أوضح ما أقترحه لست أدعو الى كتابة مباحث اللغة العلمية باللغة اللاتينية ، كلاَّ ، وانما اقترح تغيير المعادلات الرياضية وحروفها ورموزها وأرقامها الى الطريقة المتبعة في كتب الغرب العلمية مع بقاء البحث والتفسير بلغتنا العربية وبشكلها الحاضر .

العلم عالمي النزعة ، فكما ان علامة الضرب (×) والقسمة (÷) والطرح (−) والجمع (+) علامات عالمية فان هنالك أيضاً أعداد عالمية ثابتة في كل لغة علمية غربية وهي تعرف « بالأعداد الثابتة » أو « بالثوابت » أو كما يسميها السير أرثر ادنجتن « بثوابت الطبيعة » [1] وهي أعداد ثابتة الكمية يرمز لها بحروف منها لاتينية ومنها يونانية فمثلاً حرف (c) يرمز لسرعة الضوء وحرف (ق) اليوناني يرمز لعدد الاهتزازات وحرف لمدا لطول الموجة و (h) لثابت بلانك و (E) للطاقة و (m) للكتلة . . . الخ الخ.

فهذه رموز نجدها في الكتب العلمية الروسية والانكليزية والألمانية والايطالية والهولندية وفي أي لغة غربية .

لست أريد أن أطيل القول وآتي بالبراهين التي تؤيد صحة هذا الرأي فهو شيء يحسه كل عالم عربي ، ويشعر به كل مثقف . واني أشعر انه إذا أيدت في قولي هذا نكون قرّبنا العلم لنا ، وقرّبنا نحن ولغتنا للعلم .

القدس فؤاد صروف

(١) Constants of Nature

الفاطميون
ورأيهم في الخلافة

الخلافة مصدر خَلَفَ، يقال: خَلَفَهُ خِلافة، كان خليفته وبقي بعده، والجمع خلائف وخلفاء، والخلافة نظام من أنظمة الحكم الخاص بالمسلمين، وهو نظام قوامه الدين، فللخليفة على المؤمنين الولاية العامة والطاعة التامة لأنه نائب عن الرسول في تنفيذ الشرائع والسير بمقتضى أصول الدين والمحافظة عليه والعمل على نشره، يلقي خطبة الجمعة ويؤم الناس في الصلاة ويعاقب المارقين على الدين فهو على هذا الأساس حاكم المسلمين الروحي وهو أيضاً حاكم المسلمين الزمني إذ نيط به الاشراف على شئون الدولة وادارة دفة سياستها، يجمع في يده السلطتين الروحية والزمنية. ولما مات النبي (ص) لاثني عشرة ليلة من شهر ربيع الأول سنة ١١ هـ (٨ يونيو سنة ٦٣٢ م) لم يؤثر عنه نص صريح فيمن يتولى خلافة المسلمين من بعده، ولم يرد في الكتاب الكريم والسنة الشريفة أمر صريح في انتخاب خليفته إلاّ أوامر عامة مثل قوله تعالى « وأمرهم شورى بينهم » وقوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم » وقوله تعالى « إنما المؤمنون اخوة » وقوله تعالى « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ومثل قوله عليه الصلاة والسلام (لا فضل لعربي على عجمي إلاّ بالتقوى) وقوله (كلكم لآدم وآدم من تراب) وقوله (اسمعوا وأطيعوا وان استعمل عليكم عبدٌ حبشيٌ كأن رأسه زبيبة). ومع ذلك رأى الشيعة وجوب حصر الخلافة في آل بيت النبي عليه السلام ورشحوا ابن عمه عليّ لأسبقيته في الاسلام وملازمته له ومناصرته للدين ولأنه بات في موضع الرسول في الليلة التي هاجر فيها من مكة الى المدينة ولأنه زوج فاطمة الزهراء وأب الحسن والحسين منها وفضلوه على العباس عم النبي وعاصبه الوحيد، لأن العباس حارب المسلمين في غزوة بدر الكبرى ولم يدخل الاسلام إلاّ متأخراً. ونسب غلاة الشيعة الى النبي أحاديث تشهد بأن آل عليّ من حرمة وبما لعليّ من حق في

الامامة بعد الرسول فقالوا إن النبي عليه السلام قال « من سبَّ عليًّا فقد سبني » « ولا يبغضك مؤمن ولا يحبك منافق » « وطوبى لمن أحبك وصدق فيك وويلٌ لمن أبغضك وكذب عليك » [1] وانه عليه الصلاة والسلام عند ما خرج في غزوة تبوك قال له عليّ : أخرج معك فقال له النبي لا ، مع انه حضر كل الغزوات عدا غزوة تبوك هذه ، فبكى علي فقال « اما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى ، إلاّ أنك لست بنبي ، أنه لا ينبغي أن أذهب إلاّ وأنت خليفتي » [2] وبذلك استخلفه على أهل المدينة في هذه الغزوة وانه عليه السلام لما رجع من حجة الوداع خطب الناس بمكان يقال له غدير خُمٍّ في اليوم الثاني عشر من ذي الحجة وقال في خطبته « من كنت مولاه فعليٌّ مولاه ، اللهمَّ وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله » [3] ولهذا يلبس الشيعة الجديد ويكثروا من عمل الخيرات ويوسعوا على أنفسهم يوم ١٨ من ذي الحجة لأنه يوم عيد الغدير ويعتبره الاسماعيلية أعظم من عيد النحر .

ويروون أيضاً أن النبي عليه الصلاة و سلام قال « أنت سيد في الدنيا ، سيد في الآخرة ، من أحبك فقد أحبني وحبيبك حبيب الله ، ومن أبغضك فقد أبغضني وبغيضك بغيض الله وويلٌ لمن أبغضك من بعدي » [4] وانه عليه الصلاة والسلام قال « عليٌّ مني وأنا من عليّ يؤدي ديني وينجز وعدي » و « يا علي أنت أخي ووصيي وخليفتي من بعدي وأبو ولدي ، تقاتل على سنتي وتقضي » [5] .

وانه قال « لأعطينَّ الراية رجلا يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله ، ودعى عليًّا فأتاه وبه رمد فبصق في عينيه ودفع الراية اليه » وانه دعا عليًّا وفاطمة وحسناً وحسيناً فقال « اللهمَّ هؤلاء أهلي » [6] . ويروون عنه صلى الله عليه وسلم انه قال « أقضاكم عليٌّ »

(١) البداية والنهاية في التاريخ لابن الفدا ص ٣٣٠ و ٣٥٤ وسيرة ابن هشام ص ١٥٨ و ١٥٩ والطبري ج ٣ ص ١٤٣ وأسد الغابة لابن الاثير ج ٤ ص ١٦ و ١٩ و ٢٣ والقلقشندي صبح الاعشى ج ١٣ ص ٢٢٦ (٢) البداية ص ٣٣٠ و ٣٣٨ وأسد الغابة ج ٤ ص ٢٦ وابن خلكان ج ٢ ص ٥٥١ و ٥٥٣ البداية ص ٣٣٠ والخطط المقريزية ج ٢ ص ٢٢٣ و ٢٢٤ وشرح الاخبار المخطوط الفوتوغرافي لابن النعمان ورقة ٧ وأسد الغابة ج ٤ ص ٢٨ والقلقشندي ج ١٣ ص ٢٣٠ وكتاب الهفوة في آداب الآلة لابن النعمان المخطوط ورقة ٤٣ ب والعقد الفريد لابن عبد ربه ج ٣ ص ٦٤ (٤) البداية ص ٣٥٥ (٥) شرح الاخبار ورقة ٨ (٦) أسد الغابة ج ٤ ص ٢٦ والبداية ص ٣٣٩ والعقد الفريد ج ٣ ص ٢٤ .

و«أنا مدينة العلم وعليّ بابها فمن أراد العلم فليأت بابه»[١] وانه عليه السلام قال لعلي «أنت ولي كل مؤمن بعدي»[٢] وانه قال اللهمّ ائتني بأحب خلقك اليّ يأكل معي من هذا الطائر فجاء أبو بكر فردّه، ثم جاء عمر فردّه، ثم جاء عثمان فردّه، ثم جاء علي فأذن له»[٣]. وأكبر الظن أن بعض هذه الاحاديث صحيح وبعضها منتحل، فنحن نستبعد بكاء عليّ وان عمداً وهو عربي كريم يرد بعض أصحابه عن أكلة شهية أتاحها الله له.

وإذا كان الامام علي وأمه وزوجه فاطمة من الموعودين بالجنة[٤] وللحسن والحسين سيدا شبابها، فاننا نعتقد ان النبي عليه السلام مع ذلك لم يستخلفه لبعده عليه السلام عن التحيز والميل الى ذوي قرباه خصوصاً وان الاستخلاف منافٍ لروح الديمقراطية، فآثر أن يترك الأمر شورى لهم ليختاروا من أحبوا. وكان العباس بن عبد المطلب قد أشار على الامام عليّ أن يدخل على النبي وهو مريض فيسأله عن الخلافة بعده أهي فيهم أو لغيرهم؟ فامتنع عن ذلك قائلاً «ان منعنا إياها لا نالها أبداً» ولقد فرح الشيعة عند ما انتخب عليّ خليفة للمسلمين. ولما أرادوا أن يحصروا الخلافة في نسله سألوه وهو على فراش الموت «أفنبايع الحسن؟» فقال لا آمركم ولا أنهاكم، أنتم أبصر» فبايعوا الحسن الذي تنازل عنها لمعاوية

والشيعة تعتبر الخلافة ركناً من أركان الدين وان تعيين الامام من أسرة النبي عليه الصلاة والسلام واجب يلا رجوع الى الأمة؛ فهم لذلك قد حصروا الخلافة في أسرة معينة وفي بيت معين هو بيت الامام عليّ وأصبحت عقيدتهم ان الحسن هو الخليفة بعد أبيه وان الخلافة ارث في بيت علي. ولذلك قامت الشيعة بمقاومة الدولة الاموية ما استطاعوا الى هذه المقاومة سبيلاً. ولما نشأت الحركة التي تدعو لنسل العباس (عم النبي عليه السلام) بالخلافة اتخذ دعاتها الحيلة فدعوا لمبايعة الرضا من آل البيت مبررين عدم ذكر الاسم خوفاً على حياة الشخص من بني أمية، حتى اذا ما نجحت دعوتهم قام ابو مسلم الخراساني وأماط اللثام عن «عبد الله السفاح بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس» وأعلنه خليفة للمسلمين وبذلك عادت الخلافة مرة أخرى الى آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم من أبناء عمهم العباس. وبذلك يقرن السفاح عند ما تمت له الخلافة وهو على المنبر «خصنا برحم رسول الله صلى الله

(١) أسد الغابة ج ٤ ص ٢٢ والبداية ٧ ٣٩٥ والعقد الفريد ج ٣ ص ٩٤ (٢) البداية ص ٣٣٨ الشيرستاني ج ١ ص ٢٢١-٢٢٢ (٣) البداية ص ٣٥١ (٤) البداية ص ٣٤٢ والعقد الفريد ج ٣ ص ٩٤

عليه وسلم وأنشأنا من آبائه وأنبتنا من شجرته واشتقنا من نبعته »[1].

غير أن ذلك لم يرق في أعين العلويين واعتقدوا انهم أحق بالخلافة من أبناء عمهم العباس فقاموا في وجه العباسيين ولكنهم كانوا أضعف من أن يتغلبوا عليهم ولما كدوا أنهم لن يتحقق غرضهم ما داموا قريبين من بغداد مركز الخلافة العباسية ، ففرّ عبد الله المهدي الى إفريقية حيث أسس الدولة الفاطمية وأقام خلافتهم ببلاد المغرب سنة ٢٩٧ هـ (٩٠٩ م) عند ما أخذ البيعة من رؤساء كتامه التي أينعت فيهم تعاليم دعاة الشيعة فلقبوه « المهدي أمير المؤمنين » فتحوّلت الخلافة بذلك الى ملكية ثيوقراطية والى حكم استبدادي يتصرّف فيها الخليفة بارادته وأهوائه ويتناقلها الابن عن الأب فيأخذ له الخليفة البيعة من وجوه الناس وكبار القواد في حضرته ، وزاد نفوذ العبيديين عند ما فتحوا مصر في زمن المعز لدين الله رابع خلفائهم وأولهم بمصر ، وبذلك تغدو القاهرة سنة ٣٦٢ هـ (٩٧٣ م) عاصمة الدولة الفاطمية بدلاً من رقّادة والمهدية وتصبح الديار المصرية دار خلافة شيعية تنافس خلافة أموية سُنّيّة بقرطبة ، وأخرى عباسية بالمشرق ، وتغدو القاهرة ملاذ الشيعة ومعقلها الحصين.

ولقد تمتع الخليفة الفاطمي بكل مظاهر الأبهة التي يتمتع بها القياصرة والملوك فلبست الخلافة الاسلامية في زمنه مظهر الملك وأبهته ، وارتدت سماوة الحكم وعظمته ، وبعد أن كان الخلفاء الراشدون لا يحجبون عنهم أحداً اتخذ الخليفة الفاطمي الحجاب [2] وأقام الشرطة لحراسته [3] وبعد ان كان الخلفاء الراشدون بعيدين عن مظاهر الترف يسوسون ملكهم بما يحدثه الوازع الديني في النفس ، نجده يتخذ المقصورة في المسجد خوفاً مما حدث للامام عليّ ، ويصلي بها منفرداً عن الناس فاذا سجد قام الحرّاس على رأسه رافعين السيوف ، وبذلك عاش تحوطه الأبهة والعظمة ، يسوس ملكه بقوة البطش وحد السيف . وبعد ان كان الخلفاء الراشدون يظهرون للناس كأفراد عاديين أصبح الخليفة الفاطمي ينحني أمامه الداخل عليه والخارج من حضرته ويقبل الأرض بين يديه ويلثم يديه ورجليه [4] وأصبح يعتقد نفسه وحده القمين بفهم القرآن والسنة والقادر بمفرده على تفسيرهما لأنه مستودع العلم الشرعي تنتقل هذه الصفة منه الى ولده . وكان يقول إن النبي عليه السلام عند ما سئل عن قوله تعالى

(١) وردت الفكرة في رسالة هجرة المؤيد المخطوطة الفوتوغرافية ج ٤ ورقة ٤ . (٢) القلقشندي ج ٣ ص ٤٧٧ و ٥٠٠ (٣) القلقشندي ج ٣ ص ٥٠٧ — ٥٠٨ (٤) القلقشندي ج ٣ ص ٤٩٩

« قل لا أسألكم عليه أجراً إلاّ المودّة في القربى » أجاب ان القربى هم « عليّ وفاطمة والحسن والحسين » وانه عليه السلام قال « من أحبهم فقد أحبني ومن أبغضهم فقد أبغضني و « ان هذا الواجب للأئمة من ذريته في كل عصر وزمان لانهم أهله »[1]

ويحدّثنا ابن النعمان في مخطوطه « كتاب المسة في آداب الأئمة »[2] عن الآداب الواجبة على الناس في السلام على الأئمة والكلام بين أيديهم فيقول « تعظيم الأئمة صلوات الله عليهم من تعظيم الله عزّ وجلّ انه إنما يراد من تعظيمهم طاعته ويبتغى فيه مرضاته لا شريك له . وقد رأينا أوصياءهم وولاة عهودهم يقبلون الارض في سلامهم عليهم بين أيديهم إجلالاً لهم وعلماً بقدرتهم ومعرفة بما أوجب الله لهم ، لو سجد ساجد لولي من أولياء الله إعظاماً لله لم يكن ذلك بمنكر . فقد ذكر الله عن أبي يوسف وإخوته أنهم خرّوا سجداً فلم يعب ذلك من فعلهم وأعاب الذين يسجدون للشمس من دون الله . وقال لا تسجدوا إلاّ لله فانما نهى عزّ وجلّ عن السجود لأحد من دونه يتخذه إلهاً معبوداً . فأمّا السجود تعظيماً له فلم ينه عنه » ثم يقول « فينبغي لمن واجه الامام أن يبدأ بالسلام عليه ثم يقبّل الارض بين يديه ويعتقد ذلك تعظيماً له وتقرباً إلى الله ويقول في السلام عليه قبل انحطاطه لتقبيل الارض : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ويكون ذلك بحيث يراه الامام وان كان المسلم بحيث يسمع ردّ الامام عليه السلام لم ينحط الى الارض لتقبيلها إلاّ بعد فراغ ردّ الامام عليه بالسلام. ثم إذا قبل الارض قام فان حضر لأمر يريد الكلام فيه مما يجب وينبغي لمثله أن يتكلم به وكان ممن ينبغي لمثله الكلام بين يدي الأئمة تكلم وإلاّ استأذن في الكلام فان أذن له الامام تكلم وان لم يأذن له انصرف » . ثم يشرح الرسوم التي يجب على الناس أن يفعلوها في حضرة الامام فيقول : « فاذا قام القائم بين يدي الامام فليقم قائماً معتدلاً كقيامه في الصلاة ، وليرم ببصره الى الأرض إجلالاً وهيبة له ، ناظراً إلى الامام من تحت طرفه ويخفض جناحه » الى أن يقول « ولا يعبث بيديه ولكن يرسلها إرسالاً أو يضع يمينه على شماله تحت صدره ويلزم الصمت الى أن يسأله الامام » الى أن يقول : « وفي حال من يرفع الأمور اليه من جعل ذلك له فيتكلم فيه وفيما ينبغي له الكلام فيه ما استمع الامام منه ، فان أعرض عنه أو

(١) كتاب المسة في آداب الائمة لابن النعمان المخطوط ورقة ٧ (أ) (٢) كتاب المسة ورقة ٦٠ (ب) و ٦١ (أ) .

قطع كلامه لأمر عرض له أو لغير أمر فلينصت المتكلم حتى يأذن له الامام في الكلام بلفظ أو بإيماء أو باستفهام، فحينئذ يعود الى ما كان فيه وإلاّ سكت على ما قطع الكلام عليه ولا يرجع من غير إذن له فيه ». « وليكن كلامه إذا خاطب الامام كلام متخافت بلفظه بقدر ما يسمعه الامام ولا يرفع صوته عنده . فقد سمى الله عزّ وجل عن رفع الأصوات فوق صوت نبيه » الى أن يقول : « فاذا خاطبه الامام أصغى الى لفظه . وكذلك ان كان حديث الامام لجماعة من بحضرته فينبغي لكل واحد منهم الانصات والاصغاء اليه ، وكذلك إن خاطب أحدهم خطاب علانية غير سرّ ، فينبغي لمن سمع خطابه الاصغاء اليه وطلب الفائدة منه فان في كل لفظة يتفظ بها الامام حكمة لمن يتدبرها ويرفق لفهمها ومعرفتها ». « ولا يرى من سمع كلام الامام ان لفظة من ألفاظه تخرج مخرج هزل أو تقع موقع عبث أو تجري بغير فائدة ، وان ظهر ذلك للسامع منه فينبغي له أن لا ينزله بهذه المنازل ، وأن يعلم أن الله سبحانه قد برّأهم صلوات الله عليهم من ذلك ، وأن فهمه هو الذي قصر عن إدراك معرفة الفائدة من لفظه ». فان جرى في المجلس من الكلام ما تبسم أو يضحك عند الامام ، فانه لا ينبغي لأحد من جلسائه ، والقائمين بين يديه أن يضحكوا لذلك ، ولكن ينبغي لهم أن يطرقوا بأبصارهم متبسمين ويظهروا الوقار والسكينة ويعظموا مجلس الامام من الضحك فيه فليس ذلك فيه إلا له عليه السلام .

ثم يحدّثنا عن الآداب التي يجب أن يتصف بها الناس القريبون من الامام عند ما يريد أن يتحدّث أحد منهم حديثاً لا يريد أن يعلمه غيره فيقول : « وان خاطب أحداً منهم أو من غيرهم سرًّا فينبغي لمن قرب منه أن يباعد عنه وجليسهم ألاّ يصغوا اليه ولا يلتفتوا نحوه حتى يقضي نجواه » ولا ينبغي لهم أن يتناجوا في مجلسه ولا أن يتحدثوا بينهم حديثاً دونه وينبغي أن يكون جميع ما يجري في مجلسه منه ومن جلسائه سرًّا لديهم وأمانة عندهم ». ثم يتكلم عن رسوم صحبة الامام فيقول : « ينبغي لمن سار الأئمة في سفر أو حضر أن يلزم الموضع الذي فيه رتبته فان كان فيمن رتب أن يسير بين يدي الامام سار كذلك ولزم ما أمر به وجعل همته وشغله التحفظ لمكان الامام من غير أن يكثر التلفت اليه » . « ينتقد ذلك باختلاس من نظره » ، « يرى منها الامام خلقه فيعرف أين هو منه ومكانه من القدر الذي رتب له » ، « فان بعد عن ذلك وقف حتى ينتهي الامام الى الوضع الذي يرى ان ما بينه

وبينه هو القدر الذي رتب له » [١].

والفاطميون يرون ان طاعة أولياء الله طاعة لله ، ومبايعتهم مبايعة لله ، ومن خانهم فقد خان الله ومن وفّى لهم فقد وفّى لله ، ومن أدّى أماناتهم فقد أدى أمانة الله لان الله تعالى يقول في كتابه العزيز « ان الذين يبايعونك إنما يبايعون الله » ويقول في موضع آخر « من يطع الرسول فقد أطاع الله» ويقول في موضع ثالث « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم» ويقول النبي عليه الصلاة والسلام «من أطاعني فقد أطاع الله ومن أطاع الامام فقد أطاعني ومن عصاني فقد عصى الله ومن عصى الامام فقد عصاني» [٢]

لذلك يقول الصادق جعفر بن محمد صلوات الله عليه « نحن أبواب الله وأصابه لعباده ومن تقرّب بنا قرب ، ومن اشفع بنا شفع ، ومن استرحم بنا رحم، ومن أعرض عنا ضلّ » [٣] ويروون عن الحسين بن علي أنه قال «من أحبنا بقلبه وجاهد معنا بلسانه ويده فهو معنا في الرفيق الأعلى، ومن أحبنا بقلبه وذب عنا بلسانه وضعف أن يجاهد معنا بيده فهو معنا في الجنة دون ذلك منزلة، ومن أحبنا بقلبه وضعف أن يجاهد معنا بلسانه ويده فهو معنا في الجنة دون ذلك وليس دون ذلك شيء » [٤].

ولقد استمرت طريقة اختيار الخليفة الوراثية سائدة في الدولة الفاطمية فكان الخليفة عندما يشعر بدنوّ أجله يعهد بالخلافة قبل وفاته [٥] بان يرى أن يكون ولي عهده وتتجدّد البيعة بعد وفاته له بالجامع، وله أن يخفي موت والده إن رأى لزوماً لذلك ، فمثلاً ستر الخليفة القائم بأمر الله موت والده المهدي مدة ، كما أخفى الخليفة المنصور بالله موت والده القائم خوفاً من أن يعده أبو يزيد مخلد بن كيداد الخارجي. فلما تغلب عليه أظهر موت والده سنة ٣٣٦ هـ. مع أنه مات سنة ٣٣٤هـ. كما ستر المعز موت أبيه المنصور مدة [٦]

ولما استولى على الدولة الفاطمية الضعف ، انتقل هذا الحق لأصحاب الحل والعقد فكانوا يختارون الخليفة ممن يقتضون غير مراعين أن تكون الخلافة للاكبر فالاكبر من البيت

(١) كتاب الهمة ورقة ٥٦ ب و ٦٦ ا و ٦٧ ا (٢) كتاب الخراج لابي يوسف ص ١٠
(٣) كتاب الهمة ورقة ١١٦ ا (٤) كتاب الهمة ورقة ٦ ب و ١٠ ا (٥) أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر المخطوط الفوتوغرافي في ورقة ١ و ٣ و ٤ و ٨ ؛ والنجوم الزاهرة لابن المحاسن ج ٤ ص ١١٢-١١٣ و ١٧٦ وأخبار مصر لابن ميسر ج ٢ ص ٥٢ و ٥٤ (٦) اتعاظ الحنفا للمقريزي ص ٥٤ و ٥٦ وكتاب المختصر في أخبار البشر لابي الفدا ج ٢ ص ٨٠ و ٩٥

مؤكداً إمكان قيام « التراجيدية » القديمة بجوار المسرحية العصرية التي تجود بها قرائح الابداعيين وهكذا ظلّ يتوقل صُعُداً في معارج الشهرة الى أن انتخب عضواً في الأكاديمية الفرنسية واقتعد مقعده بين صفوف الخالدين.

ومن يومئذٍ والشاعر عاكف على انتاجه، موالٍ لنظم أشعاره ونثر كتاباته. ولكنه في غمرة دأبه وجهده، لا ينسى مطالب القلب. فهو يتنقل، ولو برهة، بين محابه ومواجده، كالنحلة لا تني ترفرف فوق الورود والرياحين، لترشف من عطورها وتمتص من رحيقها، شهدها الجني ورضابها المعسول.

ولكنه أبداً شاعر الألم والحزن، لا يسلمه الحب إلاّ الى التعذيب، ولا يسلمه التعذيب الاّ الى البكاء والأنين:

لقد نقمت قوّتي وحياتي،
وطمعت في صداقتي ومرحي،
وسُلبتُ حتى انتخاري،
الذي كان يُبشّرُ بنبوغي.

—

وحينما عرفت الحقيقة،
ظننتها وفية صديقة،
فلما فهمتها ووعيتها،
مجنتها وكرهتها!

—

ولكنها أبدية سرمدية،
وهؤلاء الذين حولها،
جهلوا كل شيء!

***

ومن يومئذ توالت عليه النكبات والمتاعب، وجاء عام ١٨٤٢ مليئاً بحوادثه وأحزانه

الزهد — Asceticism

Gr. askesis = hermit

١ — حياة الزاهد وأعماله .

٢ — الفائد والاعمال التي يتسم الزهاد ، وهم الذين يعملون على قتل الجسم ، لايقاظ الروح

٣ — لا تدل الكلمة الاصلية التي اشتق منها هذا الاصطلاح اليوناني على شيء من المعاني التي تلابسه الآن ، من حيث الاشارة الى الزهد ، فقد استعملت أولا للدلالة على طرق اللاعبين في رياضة أجسامهم ، ثم استعملت في مدارس الرواقيين لمعنى قمع الشهوات والميول والتزام الفضيلة . ثم تلقفها أوائل النصارى من مدرسة الاسكندرية ، لما يشبه المعنى الذي استعملها فيه الرواقيون إذ أطلقوها على تنظيم قوى النفس ، وعلى النحو الذي سلكه اليهود التنكر في الطبيعة الجسمية بما فيها من رغائب وشهوات ، معتقدين أنها موطن الشر في الانسان منذ أن طرد آدم من الجنة . واتخذوا لذلك وسائل منها العزوبة وعيش الفقر والتكفير عن الخطيئة والمزلة . وهي وسائل ظلت مرعية قروناً عدة في نظم الرهبانية . وهناك ما هو أشد من هذا لقتل الجسم بين الوثنيين منذ أبعد أزمان التاريخ ، ولا سيما بين البرهمين والمندوكيين ، لاعتقادهم أن السعادة هي الشر ، وأنه لا سبيل الى الخير الاسمى إلا بقمع الجسم وتعذيبه .

عاصفة

للريح في كبد السماء شكايةُ المتوجع
ولرعدة الغصن النحيـــل تضرُّع المتخشع
والطير في شبه الذهو ل ولوعةِ المتفجع
درجت الى أحشائها عتى الوساوس لا تعي
فأمضَّها أن أبصرت قطع الرياض كلقع
والكون في حلل الدجى كالراهب المتضرِّع
والأرض تزخر بالعوا صف مثل يمّ صاخبِ

تتكفأ الأغصان كالسُّكرِ من عصف الرياحِ
ولها اذا اصطفقت حفيـــفٌ مثل غمغمة النواحِ
واذا تمايلت الغصـــون كرهقٍ فوق البطاحِ
ألفيتهـــا تنزو على مخضٍ كقصوص الجناحِ
أو مثلما ينزو جريـــح تحتَ أعباء السلاحِ
إنْ قام أقعده العيا ءُ وطاقه زُف الجراحِ
والريح تعصف بالغصو ن بكفِّ عربيدٍ وقاحِ
شدًّا وحذيًا مثلما عبث الشجاع بهاربِ

تلقى الفهمَ يثور مصـــطخباً بأجواز الفضاء
تجري العواصف بالغما م كما جرى حكم القضاء
فتراه أسلس للريا ح قياد أعمى عن رضاء
وتراه حين تهيجـه الأنواء معتكر الدلاء

متخبطٌ في جهله يرغي ويزبد من عياء
والسحب تضرب في الفضا ء كحائر دون اهتداء
تعبو وتنزو كالسقيـ ـم أمضه برح العياء
إن قام أعياه الضنى وثناه جهد اللاغب

والنهر في الليل البهيـ ـم ينُّ كالمضنى السقيم
تلقاه مضطرب الجوا نب مثل شيطانٍ رجيم
متململٌ في سيره كتململ البرم السليم
أتراه محمـوماً يعـاني نهشة الداء الأليم؟
لا يأتلي كالصب ينـ ـفث زفرة الوجد الأليم
ويمجُّ كالمصدور أنـ ـفاس الكآبة والهموم
أو مثلما راح الذبيـ ـح يفطُّ من زف الكلوم
والريح مشرعةٌ حيا لَ النهر رمح محارب

سكنت عوادي الدهر حيـ ـن الصبح آذن بالشروق
فتلهبتْ عينُ السقا ئف من كرى ليلٍ سحيق
وتنفستْ قطع الريا ض كمدنفٍ من كرب ضيق
والطير قامت تمسح الأجفان من نوم عميق
بَسَمَ الزمانُ فقامتِ الأغصان عن قدٍّ رشيق
لكنَّ قلبي من عوا دي الدهر موصول الخفوق
وعواصف الألم المر يرِ تمتجُّ ناراً في عروقي
لا تأتلي حياشةً مثل المغيظ الغاضب

دمشق عمر أبو ريشة

نسب العبيديين

الفاطميين

قرأت في عدد يناير من مجلة المقتطف للأستاذ عطية مصطفى مشرفة مقالاً يفند فيه القصص التي اختلقت لتزييف نسب الفاطميين ويقيم الأدلة على صحة نسبهم . وقد أعجبني منطق الأستاذ في إظهار اختلاق تلك القصص ولكنه لم ينظر في اختلاف روايات نسبهم . وأرى أن المؤرخ غير المتشيع لهم يقف موقفاً لا يكذب نسبهم ولا يصدقه . نعم ان العقل يود أن يستقر على أحد الأمرين ، ولكن في التاريخ أموراً كثيرة لا يستطيع المرء أن يثبتها أو ان ينفيها . اما اعتراف الادارسة في مراكش ، فذلك لأنهم كانوا قد غلبوا على أمرهم عند ما امتد سلطان العبيديين الى دولتهم والأحداث الخطيرة التي حدثت في الحجاز واليمن تفسر أيضاً سبب الاعتراف بهم ، فهذا الاعتراف لا يثبت نسبهم ولا ينفيه . مثله مثل قصة الشريف الرضي ببغداد وأمراء شمال الشام والجزيرة الذين اعترفوا بالعبيديين طلباً للاستقلال عن بغداد لا بعد تمحيص وتأكد نسب العبيديين . والأستاذ يقول إن الشريف الرضي من خشية الخليفة العباسي أقسم انه لم يقل الابيات التي يعترف بصحة نسبهم فيها ، وأذاع هو وأشراف بغداد وثيقة ببطلان نسبهم . وإذا أجاز الأستاذ أن يكون الشريف الرضي حانثاً كاذباً في قسمه أجاز أن يكون قد نظم تلك الأبيات في ساعة ضيق وهو بأرض أعدائه اعتزازاً بقوة العبيديين وملكهم . ثم إذا أجاز الأستاذ للشريف الرضي الحنث والكذب خوفاً ، فلماذا يستبعد أن يكون اعتراف الادارسة وغيرهم من العلويين خوفاً أو رغبة . ولم يثبت الأستاذ أن العلويين الخارجين على الخلافة العباسية والذين كانوا يسمون بالمستورين ، كانوا على اتصال بالشريف الرضي ، وانه كان داعماً يقيد أسماءهم وأسماء أبنائهم في جريدة أحساب الاشراف ، إذ ان هذا مستبعد فلسببين : السبب الأول ان الشريف الرضي وأباه كانت تحوطهم عيون الخليفة العباسي وجواسيسه . وقد وصف الشريف الرضي في شعره عدوة هؤلاء الأعداء

له وصفاً مخيفاً لا مزيد عليه . والسبب الثاني أنهم لو كانوا على اتصال به وبأبيه وهم مستترون لما حدث الاختلاف في أسمائهم وأسماء أبنائهم حتى بين شيعتهم . أما قصة ابن طباطبا وذهب المعز وابن خلكان يروونها تارةً كأنه يكذبها ، وتارةً كأنه يصدقها ، وهو يعترف ان ابن طباطبا مات قبل دخول المعز أرض مصر . وعلى فرض انها حدثت مع غير ابن طباطبا وأخطأ الرواة في وضع اسمه بدل اسم غيره، فانها لا تدل على كذب نسبهم ، بل تدل إذا صحّ نسبهم، إما على ان عهد التستر والتشرد خوفاً من طلب الخليفة العباسي اضطرهم على ان لا يتركوا معهم وثائق ينكشفون بها وهم مطلوبون ثائرون ، وإما تدل على أنقة وعزة ووثوق يجعل نسبهم فوق البحث . ولهذه القصة أمثال في تاريخ الأمم . ان الذي يحير المؤرخ ويجعله يقف موقفاً لا يكذب ولا يصدق، اختلاف روايات نسبهم . فالاستاذ مشرفه رفع نسبهم الى موسى الكاظم ابن جعفر الصادق . ولكن هذه رواية واحدة من روايات عديدة فأتباعهم أحياناً يرفعون نسبهم الى موسى بن جعفر، وأحياناً الى اسماعيل بن جعفر أخيه، حتى في المؤلف الواحد. ومنهم من يرفع نسبهم الى علوي آخر غير جعفر الصادق . وفي كل رواية تختلف أسماء بعض الأجداد وكذلك اختلف المؤرخون فناقضوا أنفسهم وناقض بعضهم بعضاً كما هو ظاهر في المقريزي وابن خلدون وابن خلكان وأبو الفدا وغيرهم . والظاهر ان من كان من أتباعهم من الشيعة الاسماعيلية ردّ نسبهم الى اسماعيل بن جعفر. ومن كان من الشيعة الاثني عشرية ردّه الى موسى. وقد أخذ الاستاذ مشرفة برواية واحدة من روايات الاثني عشرية . والظاهر من حوادث التاريخ أن العبيديين اتصلوا بجماعة الشيعة الاسماعيلية قبل اتصالهم بجماعة الشيعة الاثني عشرية وأن نسبتهم الى اسماعيل بن جعفر، ظهرت قبل نسبتهم الى موسى . وقد قيل في سبب اختلاف روايات نسبهم ان دعاتهم كانوا قبل تحكمهم يرفعون نسبهم على صحته الى أئمة مختلفة من أئمة الشيعة تأليفاً لقلوبهم وكسباً للاعوان . فلما صار اليهم الأمر لم يعد من المستطاع التوفيق بين الروايات المختلفة . ولكن هذا التعليل لا يثبت شيئاً . ومن يسوغ الكذب في نسبه وهو صحيح ، قد يسوغ الكذب في نسبه وهو مختلق . وهناك تعليل آخر وهو أن المستورين خشية العباسيين ، كانوا أحياناً يغيرون أسماءهم ونسبهم خشية الوقوع في أسر العباسيين وأتباعهم . وهذا أيضاً لا يثبت شيئاً إذ أن الغموض والتخفي والتحول .الاسماء والنسب أمور

تدع فرصة للادعياء . أما ان الخليفة العباسي أرسل الى والي مصر يخبره بصفات عبيد الله المهدي فهذا لا يثبت نسباً ، وإنما يثبت أن عيون الخليفة أو جواسيسه كانوا قد فطنوا الى دعوته الناس وعرفوا صفاته . وأما ان الاجداد من نسل سيدنا علي بن أبي طالب كانوا وجهاء معروفين فهذا قول يصدق على غير الثائرين المشردين الذين كانوا يلقبون بالمستورين وإلاّ بطلت هذه التسمية وبطل معنى التخفي ولم يعد هناك سبب لاختلاف أسمائهم وأنسابهم . فاما أن يرفق الأستاذ بين روايات نسب العبيديين وهي من صنع شيعتهم ، لا من صنع أعدائهم ، وإما أن يترك نسبهم لغزاً من ألغاز التاريخ العديدة فلا يدني ولا يصدق .

ع . ش

الهدنة الالهية — Truce of God

الكف عن أن يقاتل شخص آخر . وهي عادة كانت مرعية أشد الرعاية خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر في فرنسا وايطاليا والمجلترا وغيرها من الممالك ، في أثناء الاعياد الكنسية وفي زمن الصيام ، ومن مساء الخميس الى صبيحة الاثنين من كل أسبوع ، وفي صوم الاربعين أي « الصوم الكبير » Lent ، الى غير ذلك .

وكانت الكنيسة قد أقرت هذه العادة في القرون الوسطى ، ولكنها أخذت تزول تدريجياً من ممالك كثيرة ، عندما أصبح الحكام أكثر قوة . والهدنة الالهية تشابه الاشهر الحرم عند العرب .

ميلاد عصر الذرة

في هذا العام بلغ عصر الجزيء بيضة عصر الذرة . والجزيء molecule هو جسم المادة المؤلف من الذرات .

هذه البيضة نقفت عن فرخ سليط صاح في ١٥ اغسطس المنصرم صيحة مصمية دوّت دويًّا هائلاً في هيروشيما وتردّد صداها في آفاق اليابان . وانتفض الفرخ انتفاضة عنيفة زلزلت جوز اليابان زلزالاً أنسى بجميع الزلازل التي كانت تمنى بها حيناً بعد آخر . فدكّت التلال والابنية واقتلعت الاشجار واندفع من فم الفرخ لهيب ساطع أحرق الاخضر واليابس وانطلقت الأرواح [1] من الأبدان فلم يبقَ هناك حيّ يرزق .

مكمن القوة

في أوائل هذا القرن كان العلم الطبيعي مقتصراً على البحث في الجزيئات المؤلفة من الذرات . وكان يظن ان الذرة أصغر جسيم في المادة فسماها علماؤنا «الجوهر الفرد» وسماها علماء الافرنج (Atom) والآن نسميها نحن ذرة .

ومنذ مطلع هذا القرن جنح العلم الطبيعي الحديث الى البحث في الذرة نفسها إذ لوحظ أنها ليست بسيطة كما كان العلماء يظنون، ولا هي الجسيم الاصغر الذي لا يتجزأ، بل هي مركبة من جسيمات أصغر منها . فاكتشفوا منها اولاً البروتون (الكهرب) والالكترون (الكهيرب) ثم اكتشفوا معهما النيوترون والبوزيترون . بعد ذلك اكتشفوا ان هذه الجسيمات الصغرى تنحل أيضاً أو تتفتّت الى جسيمات أدق منها جدًّا تسمى « فوتونات » ونحن نسميها « ضوئيات » . ومن ثمّ جعل العلم يحاول أن يفتّت الذرة الى ملايين الفوتونات التي تؤلف منها كهاربها وكهيرباتها ، إذ لوحظ أن قوة المادة كامنة في هذه الفوتونات . وهي ما يسميه العلماء « أشعة حمًا » حين تنطلق من الذرة . لأنه اذا تفككت الذرة تنافر كهاربها الايجابية مع كهيرباتها السلبية وانطلقت منها الفوتونات الخالية من الكهرباء قوات هائلة تشكل أشعة نور باهر وحرارة شديدة .

(١) الظاهر ان مالاستاذ الفاضل قد آمن بالارواح ! المنقب . عبارة قد تنافي العلم وتؤمن للارواح الاستاذ ابي الخير) ن . ح

القوة الكامنة في ذرة الاورانيوم تساوي عشرين الف ضعف القوة الكامنة في الجزيء المسمّى trinitrotoluene أي TNT ترينيتروتالين أشد المتفجرات انفجاراً .

ولما توفق العلم الى اكتشاف قوة الذرة هذه رام أن يعتقلها ويضمها تحت سلطانه . وفي ٥ أغسطس الماضي تمّ اعتقالها وشرع عصر الجُزَيء الكيماوي يسلم فيه زمام المدنية البشرية لوليده وخليفته عصر الذرة الكهربي (نسبة الى كهرب) . صار المستقبل للذرة . وتنحّى الجزيء جانباً .

لقد طفح كيل عجائب الكيمياء والتيارات الكهربائية والآلات . فرأينا في حياتنا من عجائب الاختراعات أضعاف ما رآه بنو آدم منذ بدء الخليقة الى أواسط القرن الماضي . تُرى ماذا يكون من عجائب عصر الذرة الكهربي والكهربي .

لا يلوح الآن في تصورات البشر من عجائب هذا العصر الذرّي إلاّ استخدام الطاقة (القوة) الصادرة من الذرة للاعمال الميكانيكية كما تُستعمل قوة البخار والكهرباء . ولكن في فوتونات الذرة قوة لا مضارع لها . ولا بدّ أن يكون في الفوتون خواص أخرى عظيمة سيكتشفها العلم وينتفع بها الانسان انتفاعات لا يحلم بها .

الذرة في هذه الحرب

ما أشرّ هذا الانسان ! أول ما لاح في بال السياسيين والحربيين هو اعتقال طاقة الذرة لاستعمالها في الحرب لا في الصناعة ولا في العمران . فبذلت الحكومات المال بسخاء للحصول عليها .

ولا شك أن القنبلة الذرية التي مسحت هيروشيما (وأختها التي مسحت ناكاساكي) زلزلت أعصاب أمة اليابان كما قلقلت هضابها وكما رجّت أعصاب العالم كله . وقام في يقين الأمم ان من يملك سرّ القنبلة الذرية أو شرّها يمكنه أن يملك العالم فيكون سيد البشر والبشر عبيداً له .

يقيناً أن الأمر لكذلك . ولهذا طلبت روسيا أن يوضع سر القنبلة في أيدي دُوَل الحلفاء الخمس لكيلا تتفوّق احداهنّ على الأخريات . قالوا انها خطر على العالم كله فانها تدمّر عمران العالم في أيام اذا رام مالكوها هذا التدمير . تبيد المدنية ، تقرض الانسان عن وجه الأرض إذا وضعت في يد مجنون كهتلر . وجهلوا أو تجاهلوا ان الخطر على الانسان ليس من القنبلة الذرية ، بل من الانسان نفسه . القنبلة الذرية مادة كسائر مواد الطبيعة نائمة غابية مُقعدة لا قوة لها اذا لم يحرّضها الانسان لكي تطلق قوتها الكامنة . فهي تحت سلطة ضمير الانسان . اذا كان الضمير حيّاً فلا خوف من القنبلة الذرية .

اذا كانت القنبلة في يد أميركا وانكلترا تهددان بها روسيا أو العالم كله لكي تستعبداه فعند روسيا وعند العالم قوى للتدمير لا تقل خطراً عن القوة الذرية . هناك الغازات السامة والميكروبات الوبائية، والقنابل الصاروخية، الى غير ذلك مما يكفي لتدمير الجنس البشري كله في شهر واحد . ومن قال أن روسيا وغيرها من الدول لا تهتدي لسر هذه القنبلة عن يد علمائها

ليس الخوف من القنبلة الذرية ولا من الميكروبات والغازات السامة . وانما الخوف من شيطان الانسان الشرير . الشيطان أقوى من العلم . فاذا كان الناس يريدون أن يتقوا شر الحرب فليخزوا الشيطان وليتقوا الله الذي في ضمائرهم .

الانفجار الرهيب

كيف حدث هذا الويل في هيروشيما ثم في ناكازاكي ؟ حدث انفجار مخائي ذو أربع ظاهرات غريبة رهيبة . الأولى : سطوع ضوء لم يختبر البشر مثله البتة . ولا تختبر أرواح الملائكة مثله إلاّ اذا اقتربت من سطح الشمس . والشمس تبعد عنا ٩٣ مليون ميل[1] .

والظاهرة الثانية : حرارة لا توصف إلاّ بأنها أشد من حرارة الجحيم . وحرارة الشمس عند سطحها ٦ آلاف درجة من مقياس سنتجراد .

والثالثة : ضغط هائل في الهواء بسرعة كسرعة النور (٣٠٠ الف كيلو متر بالثانية) ضغط شديد سريع صدم الأبنية والهضاب ودكها الى الحضيض وحفر في الأرض حفرات واسعة عميقة لا نظام لها . وسحق كل مادة أو جسم سحقاً أدق من الدقيق ونفضه الى العلى عثيراً انتشر في الجو الى علو بضعة أميال . فكان كضباب أو غيوم مختلفة الألوان . وغطى الأرض على اتساع عشرات الكيلو مترات من كل ناحية .

والرابعة : دويٌّ أصمى الآذان حتى البعيدة وتردّد صداه كالرعود القواصف مادت به الأرض كأنها تهوي الى الجحيم .

لم يشهد المشهد الرهيب إلاّ الطيارون الذين أقلوا القنبلة من ارتفاع شاهق جداً وهي معلقة بمظلة خاصة (باراشوت) لكي تهبط رويداً ولا تنفجر إلاّ متى ابتعدت الطائرة براكبيها عن مكان الكارثة . ولم يعلم من الطيارين العشرة أيّ جهنم كانوا يلقون على الأرض إلاّ ثلاثة منهم فقط . وربما عرف قائدهم الكولونل بول تيبتس إنها قنبلة ذرية . وهو لم يكن قد اختبرها بعد ولا علم ماذا يكون فعلها . فما رماها عن يد حتى عاد بأسرع ما يستطيع من فوق المدينة التي فجعها بهذه الهدية الثمينة النفيسة لكي ينجو من شرها . وماذا في

(١) وقد جربت القنبلة في صحراء نيو مكسيكو وكانت بقعة ضوئها على بعد بضعة عشر ميلا من مركز الانفجار فدهش ماذا كان حدث لو انفجرت على بعد بضعة أقدام من سطوح المدينة

المعادن أنقى وأثمن من الأورانيوم .

وشعر الطيارون بريح عنيفة في الفضاء والتفتوا فرأوا عموداً غليظاً من مثل الدخان معلقاً في السماء ومرتكزاً على الأرض وكثافته لا تقاس بمقياس . ثم ما لبثوا أن رأوا غيماً كثيفاً منتشراً يغطي هيروشيما وضواحيها فحجبها عن فوق الثرى . وتحت هذا الغطاء الذي التحفته الأرض كانت المدينة تضجع على سعة أربعة أميال مربعة . كانت هذه المساحة مدفناً لأكثر من مئة الف نفس بشرية فاضت أرواحهم من غير أن تدري أنها تفيض . واندفنت من غير أن تشعر بأن الأرض ابتلعتها ، حين انتقض سافلها ، الى عاليها ، وهبط عاليها الى سافلها ، ركاماً مركوماً . وأما الطيارون فما انتبهوا من ذهولهم إلا وهم يقولون «نجنا يا رب»

هذا هو ابتداء الكون الارضي الجديد . ابتداء الخليقة الجديدة .

هذا هو ميلاد الذرة التي كانت ميتة فعاشت أو كامنة فظهرت .

هذا هو أول يوم في تاريخ دهر الذرة القادم .

لا . لا . . . تاريخ الذرة ابتدأ من آخر القرن التاسع عشر . واليك الخبر .

علماء الذرة

في أوائل هذا القرن حملت دجاجة العلم الطبيعي جنين الذرة المركبة . وبقي هذا الجنين المرتقب المحجوب ينمو في رحم أمه والعلماء يتعهدونه حتى كملت بيضته في هذا العام وباضتها دجاجة العلم الكريمة . وتقفت البيضة في ٥ أو ٦ من الماضي فأفلتت فرخاً قويّاً سويّاً نشيطاً يحمل في جوانحه خيراً وشراً للعالم ، وسعادة وشقاء للبشر ، فهم يربونه كما يشاؤون . ألخير والسعادة فيكون للخير والسعادة ، أو للشر والشقاء فيكون لهما .

اشتغل في اعمائه ٢٣ عالماً على الأقل منهم ثلاث عالمات الأولى ماري كوري التي استخرجت مع زوجها بيار كوري الراديوم وبرهنا على ان الراديوم (ومثله الأورانيوم) يتحول بالاشعاع المستمر الى فيض نور وحرارة الى عنصر آخر (رصاص) . والثانية ليز متنر النمساوية . وقد اشتركت مع هاهن الالماني باطلاق الطاقة من الذرة . والثالثة ايرين ابنة ماري كوري اشتغلت مع زوجها جوليو الفرنساوي بإحداث الاشعاع الصناعي فخطوا خطوة حسنة في سبيل تحطيم الذرة .

وأكثر العلماء توفيقاً في تحليل الذرة هو اللورد رودرفورد الانكليزي الذي اكتشف نواة الذرة التي تتجمع فيها كهاربها (بروتوناتها) وكان أول من نجح في تحويل ذرة عنصر الى عنصر آخر ، ولكن نجاحه هذا لم يكف لاطلاق طاقة .

اينشطين ألماني: وهو أول من قال ان الكتلة المادية تتحول الى طاقة تحولاً تامًّا ، تذهب شعاعاً (أشعة جمًّا) بحيث لا يبقى منها شيء . فكان ذلك تأييداً لقوله ان المادة والقوة شيء واحد . وقد ثبت ان الكهرب الموجب والكهرب السالب اللذين تتألف منهما (أو من عدد منهما) الذرة . اذا تطابقا نفى كلٌّ منهما الآخر وانطلقت كتلتهما فوتونات تحمل الحرارة والنور . فالفوتونات هي مادة وطاقة معاً . ولكن لا تعبئة كهربائية فيها .

نيكل بوهر دنمركي : وهو الذي اكتشف نظام الذرة الفلكي . وهذا النظام هو مجموعة بروتونات (كهارب) في الوسط ، وهي النواة . وألكترونات (كهيربات) تدور حولها . ورام هتلر أن يستقل بوهر لكي يشغله في اختراع مدمرات فهرَّ هذا الى انوج ومنها بطائرة الى انكلترا ثم أميركا حيث ساهم في اختراع القنبلة . ومن مساوىء هتلر الأرعن أنه كان يضطهد العلماء كبوهر واينشطين وغيرهما . وهؤلاء الذين اضطهدهم انتفع اعداؤه بعلمهم .

موزلي انكليزي : وهو مكتشف أرقام العناصر الذرية التي تدل على عدد الكهربات الدائرة حول النواة . وقد طابق اكتشافه جدول مندليف الروسي الكيماوي . واكتشاف موزلي فسر أيضاً معنى الآلفة الكيمية . وبكل أسف قتل موزلي في الخندق في معركة غليبولي (الدردنيل) في الحرب السابقة (ألا تبًّا لمن جنَّد طلاّ عظيماً كهذا ووضعه في صندوق)

السير جايمس شدويك انكليزي: اكتشف النيوترون (المتعادل) الذي تقذف به الذرة لكي تتفتت . وكان رئيس البعثة البريطانية التي اشتركت مع لجنة العمل الأميركية في اختراع القنبلة

الأستاذ ارنست اورلندو لورنس الأميركي : في جامعة كاليفورنيا مخترع السيكلوترون الحديد الذي يقذف منه النيوترون لتحطيم الذرة . وقد نال جائزة نوبل . وكان صاحب اليد الطولى في العمل الهندسي الميكانيكي في اصطناع القنبلة .

اريكو فرمي ايطالي: كان من اشتغلوا بقذف الذرة بالنيوترون . وقد اشترك مع العلماء في اختراع القنبلة .

روبرت اوبنهمر أميركي : عالم طبيعي ممتاز كان رئيس اللجنة واليه مرجع الأعمال . كان يدرب حركة اختراع القنبلة . ويرشد زملاءه . كان في معهد لويس ألاموس من ولاية نيو مكسيكو يشرف على الاختبارات والامتحانات التي أفضت أخيراً الى الاختراع .

ولا محل لسرد أسماء جميع الذين اشتركوا في بحث الذرة واختراع قنبلتها . وكلهم أوربيون وأميركيون . ولسوء الحظ ليس فيهم شرقي واحد . ليس في الشرق العربي الا الأدب ولا حظ للعلم فيه .

مسقط رأس الذرة

ولدت القنبلة الذرية في بلدة اوك ردج من ولاية تنيسي الاميركية . ومنذ ثلاث سنين لم يكن لهذه البلدة وجود . كان مكانها قرب بلدة نوكسفيل تكسوه أحراج شجر البلوط . ولم يكن هناك سوى ٣٧٥٠ نفساً متغلغلين بأكواخهم بين الأحراج . أصبحت هذه البلدة الآن تشتمل على (٧٥٠٠٠) خمسة وسبعين الف نفس يشتغلون اشغالاً مختلفة قائمين بصنع القنبلة . وهم لا يدرون ما هنالك من أعمال سرية . أصبحت البلدة المدينة الخامسة في الولاية تشتمل على مدارس ومعابد وسينمآت ومستشفيات و ٧ تياترات و١٣ موتاً تجارية الخ . وكان البناؤون يبنون أبنية لا يفهمون ما الغرض منها . والنجارون ينجزون ولا يعلمون سر ما يفعلون الخ . كل هذا حدث في ثلاث سنين .

هناك مصانع لسحق حجار البتش بلاند الذي يستخرج منه الاورانيوم . وهو مستورد من كندا ومن جهات أخرى . وهناك معامل كيمية للتحليل والتنقية والتصفية الخ . ولا متسع للوصف . ولم يكن العمل مقتصراً على هذا البلد بل كانت هناك معامل أخرى تشتغل في نيو مكسيكو وولاية وشنطون تشتمل على ٢٤ الف عامل . وكان بعض العلماء يشتغلون في معامل جامعة كولومبيا الكيمياوية . ولم يكن يؤذن لعامل أن يسأل ماذا يُعمل أو إن يجيب عما يفعل . وان فرطت من عامل كلمة غرّم عشرة آلاف ريال وحبس عشر سنين . وان أفشاه يوامر نفي الى مكان بعيد .

والحرب القادمة . . . ؟

الى أن انتهت حرب اليابان كانت الدول المتحاربة تسوق ملايين البشر الى الهلاك في ميادين القتال . كانت الحرب جيشاً لجيش ، وأسطولاً لاسطول ، وسرباً لسرب من الطائرات . أما بعد الآن فسيتغير شكل الحرب تغيراً كبيراً كما تغيرت المنفجرات من مركبات كيماوية الى مركبات الذرات الكهربية .

لا يتعبأ للقتال ملايين الرجال وإنما يتعبأ له معامل الذرات ومضادات قنابلها . وستتقي ويلات هذا القتال بحفر أنفاق في صفوح الجبال تكون مدناً وقرًى في بطون الثرى ، كما شرع اليابانيون يفعلون حين رأوا طائرات الحلفاء تدك برلين وغيرها دكا فتجعلها ركاماً بركوماً . ولكن ما هذه الحياة تحت الأرض ؟ أهكذا يصير مصير الانسان كالناحد (جمع خلد) وكالافاعي وسائر الحشرات التي تقطن الأوكار والانفاق ؟ أيعود الانسان الى القرار وهو حي ؟

كان تأثير خبر القنبلة في هيروشيما أن العالم كله جزع وانهلعت القلوب وانسكبت الرُّكب ومادت الأدمغة وذهلت العقول ووردت الى الجرائد الانكليزية رسائل الاحتجاج على

ضرب هيروشيما بقنبلة واحدة مسحتها من سفر الوجود . قالوا : « ما هذه حرباً . هذا عمل وحشي » . وقال أحدهم : « رباه ما هذا ؟ هل جُنَّ العالم ؟ » . وقال آخر : كنت الى أمس ناقماً شرَّ نقمة على اليابانيين لفظائعهم . وأما الآن فأصبحت أعطف عليهم » إذن ، بقي في قلب الانسان الوحشي ذرة من الشفقة .

كان زعماء النازيين الذين يحاكمون الآن في نورمبرج ينكرون انهم اشتغلوا في اختراع القنبلة الذرية . وعلق ريبنتروب وزير الخارجية الألمانية على خبر كارثة هيروشيما بقوله : « ان يقوم بعد اليوم سياسي أو عسكري مجنون ليثير حرباً » . وقال هرمن جورنج الذي كان وزير الدفاع ثم وزير الطيران : « انه لعمل جبار . لا أريد أن أفعله . اني مغادر هذا العالم على كل حال » .

لقد كذب هؤلاء لو صنعوا القنبلة الذرية لدمروا جميع العالم لكي تبقى الكرة الأرضية لهم وحدهم . كان الألمان باذلين كل جهد في اختراع القنبلة أو ما يشابهها . وهتلر غضب ذات يوم على عالم كان يعمل مع اختصاصيين في اختراع آلة تدمير قائلاً له : « حتى متى أنت بليد بطيء في الاختراع الذي وعدتني به ؟ » وهدَّده تهديداً شديداً . كان هتلر الأحمق الأرعن يظن انه يعتقل العقول ويخضعها كما يعتقل الأبدان . ولذلك فرَّ كبار العلماء الألمان فانتفع بعلمهم الحلفاء .

هل استعمال القنبلة محرم ؟

هل يلام الحلفاء على تدمير مدينتين يابانيتين اذا كانت الحرب تنتهي بتدميرها ، وهل يصح اتهامهم بالهمجية ؟ — لولا القنبلة لبقي اليابانيون يحاربون ويخسرون من القتلى أكثر مما أخسرتهم القنبلتان . وخسر الحلفاء منهم أيضاً . إذن فالقنبلة اختصرت الحرب وحقنت دماء . فأصبحت المسألة الآن : « هل تحرم القنبلة الحروب في المستقبل ؟

إذا بقي سر القنبلة محصوراً في انكلترا وأميركا وحدهما فقد يمكن أن لا تثار حرب في المستقبل ، اللهم إذا كان العنصر الانجلوسكسوني قد بدأ يتورَّع عن الطمع والطموح والتوثب . ولكن الماضي لم يُرنا ان في روح هذا العنصر شيئاً من القداسة والعفة . ربما كان العنصر السكسوني أرأف من غيره ولكنه ليس أعفَّ . فان النزعة الحربية باقية في قلوب الدول وان كانت القنبلة قد روَّعت قلوب الأمم واخافتها من ثبور الحرب ولا سيما لأنها لم تبق سرًّا محصوراً في دولتين . لا بدَّ أن تصنعها دول أخرى لأن بين سابقيها الذين كانوا في أميركا علماء أوربيين من فرنسا وروسيا وايطاليا والنمسا . وفي أوروبا

وروسيا علماء ليسوا أقل علماً من علماء الذرة .

لذلك لا يمكن أن يكون احتكار اختراعها حائلاً للحروب وعاملاً أكيداً لتفوُّق أمتين وسؤددها . ولا يحسم الحروب الا توبة الانسان الى الله رب السلام وخزي الشيطان الرجيم

في عصر الذرة يكون مآل الحرب الدمار التام

لا تزال الحرب تهدد العالم . والعالم لا يحتاج الى اختراع لمقاومة فعل القنبلة . وانما العالم يحتاج الى ذرة أخلاق تقوّم ضمائر الامم . فهي أفضل مقاوم لشر القنبلة . على الامم أن يسنوا دستوراً للأخلاق قبل أن يسنوا القوانين الدولية

ولكن الظاهر لنا من مفاوضات الدول ان اصلاح الاخلاق البشرية حلم غير محقق . وان « المقالب » التي يصنعها الساسة الآن تنذر بحرب على الابواب يتمنى كل انسان أن يتصور ويلها منذ الآن .

يقول أوبنهيمر الاميركي الذي كان يشرف على أعمال علماء القنبلة : « ان قنبلة هيروشيما ليست الا طفلة . فتى ترعرعت وصارت في شرخ شبابها تقذف بواسطة الاتلنتي الى الاماكن البعيدة . فثلاث قنابل تمحق أرواح أربعين مليون نسمة من كبريات مدن العالم — نعوذ برب الفلق »

خطيئة البشرية الحالية

الأرجح ان هذا الانسان لن يتوب الى الله . وان مدنيتنا الحالية شاخت وهرمت وهي تحمل ما بين جوانحها عوامل فنائها . هي ابتدعت القنبلة الذرية . والقنبلة الذرية ستفنيها . وهكذا سينقرض الانسان عن وجه الارض كما انقرض قبله الديناصور وأصناف الانسان السبعة التي تقدمته . فماذا يقوم مقامه ؟ وأية مدنية تنشأ على انقاض مدنيته

في الطبيعة الارضية أحياء كثيرة تقوم وتبني حضارة لها تختلف عن حضارتنا ثم تنقرض وتقوم بدلها أحياء أخرى تبني ثم تنقرض . وهكذا دواليك .

النمل والنحل أقدر الحشرات الاجتماعية فقد يكون المستقبل لاحدى هاتين الطائفتين أو لكليهما . وقد ينفسح السبيل لاشباه الانسان : الغوريلا والأورانغ اوتان والشمبانزي والبابون فتبني حضارة على أنقاض حضارة الانسان الا اذا أبادتها حضارة الجراثيم المرضية

هل يمكن أن ينقرض الانسان عن وجه الأرض كما انقرضت أحياء غيره .

ولكن أين العقل ؟ العقل بلا أخلاق لا يقي الانسان من الفناء . اللهم لطفك بهذا الانسان .

نقولا الحداد

نعمة الليل

عند ما يترك الدم ، خلايا المخ ، الى أي جزء آخر من الجسم ، يحل النوم بنا ... ولذا فنحن نحس الرغبة في النعاس ، بعد تناول الطعام ، وكذلك بعد الاستحمام بالماء الساخن .. لانه في الحالة الاولى ، تجذب المعدة الدم اليها لاتمام عملية الهضم ، وفي الحالة الثانية ، يندفع الدم الى الاوعية الدموية المنتشرة على أديم البشرة .

والنوم هو الراحة التامة ، التي فرضتها الطبيعة على آلة الحياة حتى لا تظل تدور ليل نهار فتفسد .

والمفروض أن ينام الانسان ثلث حياته .. أي ثماني ساعات في اليوم .. وليست العبرة في النوم بعدد ساعاته .. لانه كثيراً ما ينام الانسان وقتاً طويلا ، ويستيقظ وما انتفع من النوم بشيء إذ يصحو وهو الجسم متعباً . وكأنه قضى ليلته في سهاد طويل .

وهناك قواعد لو اتبعها المرء لافاد من النوم أكبر فائدة وهذه القواعد هي :

١ — نم مبكراً . ليكون استيقاظك في الصباح طبيعيا دون خادم يوقظك . أو ساعة تنبهك .

٢ — لتكن حجرة نومك متجددة الهواء على الدوام .. صيفاً ، وشتاء ، صباحاً ، ومساء .. وإياك أن تغلق نوافذها .

٣ — خصص ملابساً لنومك . واحرص على أن تكون هذه الملابس نظيفة ، فضفاضة ، مريحة .

٤ — لا تترك أحداً معك في سريرك .. ولو كان لك حجرة نوم خاصة بك وحدك .

٥ — نم بعد تناول طعام العشاء بساعتين على الاقل .

٦ — اشرب قليلا من الماء قبل أن تنام .. ثم تناول قدحاً من الكاكاو الممزوج بالبن الخالص .

٧ — عندما تهجع الى مخدعك .. ارخ كل عضلة من عضلات جسمك لا سيما عضلات الجبهة . واطرد من عقلك هواجس الافكار .. ثم تنفس تنفساً عميقاً ، الى أن يتلقك النوم الى عالم اللاشعور .

٨ — اذا كنت ممن يأرقون .. تعود الاستحمام بالماء الساخن كل ليلة قبل أن تنام .

***

واعلم أنك اذا أنت حرصت على اتباع ما تقدم من ارشاد .. لامتلأت أوصالك صحة ونشاطاً وقوة .. وأيقنت أن النوم هبة السماء .

فهمي عطا الله

الربيع

وشّى الربيعُ الرُّبى بالحسن مختلفاً ... ألوانه حسبناها طواويسا

وصبَّ من روحه فيها فقمتُ هوًى ... من حيث فضتْ رُبى الوادي أحاسيسا

خيلٌ مثّلتْ لي العرش في «سبأ» ... وزهرةٌ مثّلتْ لي فيه «بلقيسا»

ووردةٌ سال في أوراقها شفقٌ ... يا من رأى شفقاً بالشوك محروسا؟

بها تُقاسُ حدود الغانيات، فهل ... تروى المقيساتُ، أم تروى المقاييسا؟

وأغصنٌ لبست من نسج خالقها ... ما أنطق الطير تسبيحاً وتقديسا

يُحرّك الظلُّ في أوراقها سحَراً ... ويقرأ الطير هاتيكَ القراطيسا

ونسمةٌ كلام الله حانيةً ... تحدو لنا الطِّيبَ، لا تحدو لنا العيسا

تمرُّ بين القصورِ الخضرِ ملقيةً ... على القصور حديثاً عن «عصا موسى»

وبلبلٌ لغويُّ اللحن قد طبعتْ ... له الطبيعةُ في الأغصان قاموسا

لم تحبس المزنُ دمعاً كان منطلقاً ... إلاّ ليُطلق لحناً كان محبوسا

يشدو ويشكو، ألاَ يا من يسائلهُ ... تندى جراح الهوى في الروح، أم تونى!

هي «البراري» فقدِّم يا ربيع إلى ... «فلاّحها» أرجَ الاعجاب مدوسا

وصُبَّ في جسمه من راحتيك قُوًى ... واسْجِ له من سلام الله مدوسا

شاعر البراري

سر القنبلة الذرية

قرأت في المقتطف الأغر عدد نوفمبر سنة ١٩٤٥ مقالاً للاستاذ الكبير نقولا حداد عن « سر القنبلة الذرية » ومع أن ذلك البحث كان ممتعاً حقًّا ، إلاَّ أنه استرعى انتباهي بعض أقوال فيه لا يصح السكوت عليها ، أوردها هنا مع تعليقاتي ، راجياً أن يتقبلها الأستاذ بصدر رحب .

(١) جاء في مقال الأستاذ ما نصه بالحرف الواحد :

« أول من تنبه الى أن الذرة ليست جسيماً غير قابل التجزئة بل هي مؤلفة من جسيمات أصغر منها هو اللورد رذرفورد في أوائل هذا القرن ، فلاحظ أن في الذرة تعبئة كهربائية متعادلة أي ذات طرفين أو قطبين موجب وسالب فسمى القطب الموجب بروتون ونحن نسميه بلتنا كهرباً وسمى القطب السالب الكترون ونحن نسميه بلتنا كهرباً »

انني لا أقر حضرة الأستاذ على كلامه هذا . فراذرفورد ليس أول من تنبه وأدرك أن الذرة ليست جسماً غير قابل التجزئة في أوائل هذا القرن ، وهو أيضاً ليس بأول من عرف القطب السالب في بناء الذرة الكهربائي وسماه . والواقع أن أستاذه الكبير السير طومسون هو أول من تنبه الى أن الذرة تتجزأ ، وهو إياه الذي اكتشف دقيقتها السالبة وسماها الكترون سنة ١٨٩٧ . وقصة أنابيب كروكس المفرغة والأشعة — الالكترونات — المنكوفة عن القطب السالب عند امرار التيار الكهربائي فيها قصة معروفة ، وقد أصبحت مألوفة حتى في المختبرات المدرسية . وقد صرف طومسون وقتاً طويلا في البحث المتواصل في طبيعة هذه الأشعة قبل أن يعلن نظريته للعلماء في بناء الذرة . وأما راذرفورد فكان حظه من هذه البحوث اكتشافه الدقيقة الموجبة في الذرة — بعد أن كشف معلمه عن القسم السالب فيها وقد سماها البروتون « الكهرب » وتحقيقه بالبرهان العلمي بعد أن حطم الذرة ، الصورة الكهربائية التي رسمها طومسون لها .

(٢) ثم جاء أيضاً ما نصه :

« ثم جاء الدكتور برهر Bohr الدنمركي فبرهن على ان الكهارب تتوسط الذرة كنواة في مركزها »

ان هذا القول يضغط راذرفورد حقه في اكتشاف تلك الحقيقة العلمية لأنه هو وليس بوهر الذي جرب وبرهن على أن البروترونات « الكهارب » تتوسط مركز الذرة . وتجاربه في هذا البحث بتسديد جسيمات ألفا الى بعض الغازات مشهورة ، واستنتاجاته من ارتداد بعض تلك الجسيمات وانحرافها كانت قد حملته على الاعتقاد بأن معظم كتلة الذرة موجود في مركزها ، النواة Nucleus . وأما بوهر الذي كان وقتذاك أحد أعوان راذرفورد اللامعين فشهرته في هذا البحث قامت على تفضيله قوانين الكوانتم على سواها في تفسير بعض خواص النواة المركزة في قلب الذرة .

(٣) وجاء ما نصه :

« والسعر هو مقدار الحرارة اللازمة لرفع حرارة كيلو جرام ماء درجة واحدة من مقياس سنتغراد »

والصواب كما لا يخفى هو « والسعر هو مقدار الحرارة اللازمة لرفع حرارة جرام ماء (وليس كيلو جرام) درجة واحدة بمقياس سنتغراد » ولا أدري كيف وقع هذا الخطأ ، وما لم يكن غلطة مطبعية فالأستاذ مسؤول عنه حتى ولو كان الخطأ سهواً .

(٤) وجاء ما نصه :

« والكهارب والكهيربات تنير وتنطلق بوترونات أي ضوئيات سمية حرارة ونوراً كما هو مشاهد في الراديوم »

ان النور الذي نشاهده ينطلق من الراديوم معروف ، وخواص كل نوع من أنواعه الثلاثة معلومة أيضاً ، وهي ليست بوترونات كما توهم الأستاذ . فأشعة ألفا وهي دقائق مادية هي عنصر الهليوم . وأشعة بيتا وهذه أيضاً دقائق مادية ، هي الكترونات ، وما أشعة غما فهي ليست كأختيها جسيمات مادية ، وإنما هي أشعة من قبيل أشعة اكس وهذه هي الضوئيات .

ولا أدري كيف يجوز لنا أن نقول عن جسيمات مادية لها وزنها الخاص كالهليوم إنها ضوئيات . واما اذا كان الأستاذ قد اعتمد في قوله هذا على نظرية الميكانيكيات الموجية وبعض النظريات الحديثة التي ترى بأن لا فرق بين المادة والضوء ، فهذا شيء سابق لأوانه ولا يمكن ان تتخذ تلك النظريات كبرهان على صحة ما يقال ، لأنها أبحاث بكر تتضارب فيها الأقوال والآراء ويكتنفها الغموض والابهام .

(٥) وجاء ما نصه :

« وقد قدر العلماء التي وضعت سنة لذوبان الراديوم والاورانيوم »

ان هذا القول يصدق على الراديوم فقط ولا يصدق على الأورانيوم البتة ، فعند ما بحث العلماء وعلى رأسهم راذرفورد وصدي في أعمار العناصر المشعة قبل تحولها وفي الزمن المقدر لذوبان الراديوم والأورانيوم، أثبتوا بطريقة احصاء اللمعات المنبعثة من ذينك العنصرين في الثانية ، ان الأورانيوم الذي منه تصنع القنابل الذرية يفقد قوته الاشعاعية بعد مدة طويلة جداً، وعمره يفوق عمر الراديوم بمئات بل بآلاف المرات ، وهو كما قدّره العلماء يزيد على « ٩٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ » [1] سنة وليس ٢٥٠٠ سنة كما جاء بمقال الأستاذ .

وقد جاء أيضاً ما نصه :

« واقتطع راذرفورد كهرباً من الراديوم باطلاق أشعة ألفا من الهليوم عليه وأشعة ألفا هي أشعة « الكهارب أنفسها »

ان أشعة ألفا ليست كهارب كما تصوّر الأستاذ ، وقد ثبت للعلماء بالتجارب الدقيقة عند بحثهم في الأشعة المنطلقة من العناصر المشعة ، وخاصة الراديوم ، ان جسيم ألفا يتركب من كهربين ونيوترونين — ذرة الهليوم — أي ان أشعة ألفا هي أشعة كهارب ونيوترونات وليست أشعة كهارب فقط .

جريس الشمراخ
المدرسة الثانوية بالسلط شرق الاردن

(١) دائرة المعارف البريطانية الطبعة ص ٢٣٦٥

القيصرية : في القرون الوسطى

التسلطية : في العصر الحديث

Imperialism

(L. imperialis, imperialis; of the Empire or Embror. imperium, imperium, empire).

(١) القيصرية نظام الحكم العامل — حكم عامل تسلط بعض دوله .

(٢) المذهب أو الروح التي تقوم عليه العاملية .

(٣) الدفاع عما يعتقد أن المصالح العاملية تقوم عليه .

(٤) تدل التسلطية عند الانجليز الآن على سياسة تتضمن أمرين :

أولها — البحث عما من شأنه توسيع الامبراطورية البريطانية في الجهات التي يرى أن المصالح التجارية والمالية فيها ، أو الحصول على المواد الاولية ، وحاجة الى حماية العلم البريطاني

ثانيهما — توحيد المستعمرات المستقلة في الامبراطورية ، حتى يستطاع بتوحيدها إدراك أغراض معينة ، كالدفاع في حالة الحرب ، وتنمية التجارة الداخلية ، وحماية حق التأليف ، والاتفاقات البريدية — كما لو كانت هذه الاجزاء المتفرقة ، حكومة واحدة .

(٥) السلطان الذي يكون العامل أو العاملية ، نظام الحكم العامل .

(٦) تنمية المصالح الامبراطورية أو الاخلاص لها .

(٧) في ولايات أميركا المتحدة .

تدل التسلطية Imperialism على سياسة جديدة ترمي الى امتداد حكم الامة الاميركية الى ممالك أجنبية ، وعلى امتلاك بقاع بعيدة ، أو بسط حمايات عليها ، على القواعد والطرق التي تنتهجها الحكومات الاوربية .

أحدث المكتشفات

التي أسفرت عنها الحرب الماضية

منافع الموجات اللاسلكية في المنسوجات والمأكولات وصناعة الزجاج : يقول موروميتسف Mouromtseff إن هذه الموجات اللاسلكية الحديثة جدًّا يمكن استخدامها في الصناعة لتساعد على تحويل المواد الكيميائية منسوجات ، وكذا في المعاونة على صناعة الزجاج المأمون وفي علاج الأطعمة المحفوظة بعد كبسها في علبها وتطريميزاتها (برطماناتها) أو رزمها . ومن التجارب الصناعية الأولى التي جربت في الموجات اللاسلكية العالية التذبذب جدًّا ، تطهير دوافع الغلال الملوثة بسوس الأرز وذلك عند رفع الحنطة .

وقد اهتمّ التجار المتوفرون على تعبئة المأكولات والمشروبات في الأوعية المفرغة من الهواء ، بعملية إنضاج أخشاذ الخنازير المملحة وأمثالها من المنتجات ، وذلك بالموجات اللاسلكية العالية التذبذب . فجعلت المطاعم الأمريكية تجرب أجهزة الطبخ اللاسلكية الضخمة التي يمكن تركيبها في قاعات السفرة لأجل شيّ شرائح اللحوم أو السمك الصغير أو تحميص الخبز أمام الحريف (الزبون) حيث يتاح توليد الحرارة في باطن الطعام نفسه ، فيطبخ من الداخل الى الخارج فيكتسب طعماً يختلف عن المعتاد .

الراديو في الطب : أما في مجال الطب فقد تبيَّن أن أمراضاً شتَّى يمكن علاجها بتسليط الأمواج اللاسلكية على الأعضاء المصابة إذ يتسنَّى تركيز الموجات القصيرة جدًّا على هيئة موجات ضيقة مقيدة بدلاً من الموجات الواسعة النطاق ثم تصويبها نحو المواضع المراد علاجها ، فتكون خير الوسائل لتسخين الجسم برمته .

وفي مجال الأجهزة الكهربية المستعملة للقياس والتقدير ، اخترعت أنواع مختلفة وهي

تحتوي على الميزان المسمى سكتروميتر وأخيه الميكروميتر. والتوازن في هذا العصر شأن كبير اذ يدل الباحث على ثقل العناصر التي يستحيل توازنها لاختلاف أنواعها وذلك في الأجزاء الدوارة في آلات الجيروسكوب الصغيرة الأحجام التي لا تزيد زنة احداها على ربع رطل ، وهي المستعملة لموازنة الطائرات وفي آلات الجير وسكوب البحرية الضخمة التي تفوق زنة كل منها ٨٠ طنًّا وهي المستعملة لتوازن البواخر الكبيرة . وسوف يكون لهذا الاختراع أهمية مطردة في الأحقاب القادمة بغية المساعدة على صنع الآلات التي تبقى صالحة للعمل زمناً أطول مما ألفنا ، مؤدية أعمالها أشد سكوناً وأكثر ضماناً مما هي عليه الآن .

وصف عمل المركبات الكيميائية : ثم إن السكتروميتر الذي اخترعته شركة وستنهوس الكهربية الأمريكية لوزن ثقل الكهيرب ، هو جهاز لتعجيل تحليل المركبات الكيميائية وأعظم منافعه الحالية تبدو في صناعتي التقط والتركيب الكيميائي الصناعي حيث تمس الحاجة الى التحكم الوثيق في المواد الهيدروكربونية وما اليها من المركبات التي تتحد بعضها ببعض في انتاج المطاط الصناعي ، وكذلك في صنع وقود السيارات . أما الآن فيتم تحليل نماذج هاتيك المواد تحليلاً يقصد به الوقوف على الصفات والمقادير ، ولا يخلو ذلك التحليل عند ضبطه من خطأ يقل عن ١ ٪

وأهمُّ مما تقدم أن التحاليل المشار اليها كثيراً ما تحدث في أقل من ربع ساعة ، على حين كانت الطرق السابقة تستغرق يوماً كاملاً على الأقل . وسيغدو السكتروميتر الوزان صالحاً لصناعات أُخَر كثيرة في المستقبل وذلك كوسيلة لسيطرة المحكمة على الصناعات التي تقتضي التدقيق . وربما يمكن تطبيق القواعد الخاصة بالاسكتروميتر الوزان على الانتاج المحكم للعناصر النادرة . هذا وقد اخترعت أجهزة كهربية كثيرة الأنواع تستعمل في فحص المنتجات وفرزها وذلك في طائفة من المصانع . فثمة ترى أجهزة مختلفة من أشعة رنتجن خاصة بالصناعة تقوم بتفتيش ألواح عتاد الحرب التي لا يستطاع كشفها بأية وسيلة أخرى ثم تقوم بلحم أجزائها في زمن السلم وستصبح منافع هذا النوع من الأجهزة الكشافة العيوب سبباً لانتاج سيارات أكثر أماناً وأخف وزناً . وكذلك انتاج سيارات للركوب والنقل

وطائرات ، لا خوف من استهدافها للخطر الذي ينجم عن العيوب الخفية فيها . ثم إن البصاصات الكهربية المستعملة في كشف ثقوب الدبابيس التي قد توجد في الألواح المعدنية ، تسجل فحصها وفرز غير الصالحة منها فرزاً أتوماتيكيًّا وذلك قبل تركيبها الابتدائي . وهي العيوب الفنية التي تخفى على أبصار الفاحصين وان كانوا اثني عشر شخصاً ، إذ تظهرها البصاصات الكهربية أسرع منهم جميعاً .

ولا تنسَ الأنوار المتألقة ، وهذه قوامها الصمامات الكهربية أيضاً . وهي توالد ضياء يعدل أكثر من ضعفي عدد الشمعات التي ينتجها الوط من طاقة الكهربا في المصابيح الكهربية الدُرّية ذات الفتائل العادية . وفي هذا الصدد يقول الدكتور هويتني المدير الأول لمعهد مباحث شركة الكهربا العامة الأميركية « اني لعاجز عن التكهن بما سوف تجنيه من الطاقة الكهربية في المستقبل لأننا لم نبلغ ذروتها بعد » . وأيد هذا الرأي الاستاذ لو فقال ما يأتي :

مستقبل الطيران في عصر الذرّة : على أن المباحث الحديثة في الذرّة سوف تقضي على فواجع الطيران والكوارث الجوية التي يُروّع بها العالم من حين الى آخر ، اذ تدلُّ المباحث العلمية الحالية الدائرة بعيداً عن قائمة المحظورات السرّية ، على نجاح مختلف في آفاق جمّة سيؤدي الى زيادة الطمأنينة والثبات في الطيران في زمن السلم وذلك لأن في معاهد المباحث العلمية البريطانية كثيراً من الأجهزة الكهربية الصالحة للطيران التجاري . وستكون السرعة من ضرورات نجاح الخطوط الجوية في المستقبل . وذلك لأن السائح العصري يصبو الى الانتقال طلباً من مكان الى آخر ، ويستشيط غيظاً من إضاعة وقته سدًى في الانتظار العقيم . ومن دأبه الجنوح الى المجازفة أكثر من ميله الى التلكؤ ريثما يصفو الجو . وقد أفضى استخدام الأجهزة الكهربية الى حل كثير من المعضلات المتعلقة بسلامة الطيران . فقبل نشوب الحرب الحالية لم يكن لدى قادة الطائرات وسائط متقنة لتقدير أبعاد طائراتهم عن الأرض تقديراً صحيحاً ولا معرفة مواقعهم من الجو معرفة مضبوطة .

سلاح الجو البريطاني يثبت نفع الأجهزة الكهربية : أما الآن فقد اخترعت براعة العلماء البريطانيين وعبقريتهم ، مقاييس الارتفاع الجوي وبوصلات لاسلكية أوتوماتيكية

فأجهزة لتقدير أبعاد الأهداف ، وغيرها من الأجهزة التي تبعث الطمأنينة في أفئدة الطيارين تلك الطمأنينة التي تحققت على أيدي رجال السلاح الجوي البريطاني .

في الطيران التجاري والخصوصي ، حيث تكون نفقات الادارة ، ذات شأن خطير حقيقة تتبيّنُ منافع مقاييس وقود الطائرات ، وقد حلت الآلات الكهربية المضبوطة ، محل المقاييس العتيقة غير المتقنة لذلك الغرض .

فغدا الطيّار يتمكن من تقدير ما يوجد في صهريج طائرته من البنزين في أي وقت كان في أثناء رحلته .

ومن وسائل الطمأنينة الحديثة أيضاً ، الجهاز الكهربي الذي يدل قائد الطائرة على مقدار الجليد الذي يتراكم على مروحة طائرته ، وأجنحتها ، فيبين له متوسط تكدّس ذلك الجليد عليها فيمكّن الطيّار حينئذٍ من تغيير اتجاه طائرته ، حيثما يرى ذلك التغيير ضرورياً ربما تتحسن الأحوال الجوّية .

منع الفرقعة : وتسنّى أيضاً باستخدام كل من الجهاز الكهربي الخاص بضبط عملية مزج الهواء ببخار البنزين في محرك الطائرة ، وجهاز منع فرقعة البنزين ، السيطرة الأوتوماتيكية التامة على ما يستهلكه محرك الطائرة . وبذينك الجهازين يتاح تنظيم استنفاد الوقود ، وحتى اذا ما تولدت الفرقعة في اسطوانة أو اسطوانتين ، أو أكثر زيد الوقود الممزوج بالهواء الزيادة التي تمنع الفرقعة .

ويقدّر المطلعون على هذه الحقائق ، الوقود الذي يمكن توفيره بهذه الوسيلة الحديثة بأكثر من الطريقة القديمة بنحو العُشر . وهذا في عرفهم ، قدر يكفي لدفع ثمن الآلة المشار اليها . ثم ان البوصلة المغنطيسية القديمة قد بطل استعمالها ، إذ حلّت محلها ، البوصلة الكهربية الجديدة ، وهي تعين اتجاه الطائرة وموقعها .

وعندما يخيم الضباب يصبح من أعسر الأمور ، تعيين موقع أية طائرة بالضبط وحينئذٍ لا بدّ لقائدها من ضبط الجهاز اللاسلكي أولاً صوب محطتين أيّتا كانتا ثم تسجيل زواياها على خريطته ورسم خط يوصل كل زاوية بالأخرى ، فيعثر على محطته على غارسته وذلك عند تقاطع خطوط هاتيك الزوايا بعضها ببعض .

طريقة تسهيل هذه العملية : وقد تم تبسيط هذه العملية الخاصة بالتخطيط تبسيطاً عظيماً وذلك بالبوصلة المزدوجة الأوتوماتيكية التي تقدر خطوط الطول والعرض تقديراً أوتوماتيكياً فتتيح لقائد الطائرة تحديد موقعه من محطتين أيًّا كانتا وذلك بلمحة يلقيها على عقرب الجهاز الذي في طائرته .

الحجاب المنير : ثم الحجاب المنير الذي تديره الصمامات الكهربية ، وهو جهاز يمكّن الرقيب المشرف على الحركة في برج الميناء الجوي من تحديد مواقع جميع الطائرات الحائمة في الجو وذلك في دائرة جوية يبلغ طول نصف قطرها ٢٥ ميلاً . ومن ميزات ذلك الحجاب تيسير توجيه أية طائرة توجيهاً سليماً . وبهذه الطريقة يسهل اكتشاف أي خطر تستهدف له الطائرة من جراء حدوث أي خلل في أجهزتها أو على أثر خطأ يرتكبه قائدها ، إذ يصدف عن اتباع الارشادات . وهذه الحجب تساعد أيضاً ذلك الرقيب على تنظيم وصول الطائرات وقيامها ، بغية اجراء كل شيء طبق المرام .

جهاز التحذير من الخطر : وثمة جهاز لمنع تصادم الطائرات بعضها ببعض ، وقوامه الصمامات الكهربية وهذا سيكون له شأن عظيم في كل صوب . وهو يركب على لوحة آلات الطائرة حيث يقوم دائماً بتبيان مواقع الطائرات بنسبة بعضها لبعض ، وذلك في نصف قطر دائرة معينة .

***

وختم الأستاذ « لو » تعقيبه هذا قائلاً : — ومما لا شك فيه إنه ستظهر بأسرع ما في الامكان أجهزة كهربية شتى ، قصد استخدامها في الطيران في أزمان السلام . وان بريطانيا العظمى ما فتئت في طليعة مخترعي الصمامات الكهربية ، وسينتفع الطيارون في عصر السلم القادم ، منافع جمة ، من الاكتشافات التي تكشفت للعلماء في خلال الحرب الماضية .

عمر صبحي عبد الرزاق

Almauni — الالمان

(Less correctly Alemanni = all men that is "men of all nations"). Cent. Cycl. p. 27. — Encycl. Brit. 494. I; 14th. ed.

أمة من الجرمان أول من ذكرها في التاريخ (ديون قسيوس Dio Cassius) الروماني وكانت مجموعة من القبائل أشهرها قبيلة (الارمندري Hermundri) وفي مفتتح القرن الرابع الميلادي ، شاع ذكر قبيلة (السويبي Suebi) أو السوابي (Suabi)

وهي قبيلة كبيرة ، كانت قبيلة الارمندري ، جزءاً منها . ومن بعد ذلك العهد ، استعمل الاسمان ، الالمان والسوابي ، مترادفين ، للدلالة على قبيلة واحدة .

وظلت هذه القبائل في حروب متواصلة مع الرومان ، وأم مواقعهم موقعة « استراسبورج » التي هزمهم فيها « يوليانوس » سنة ٣٥٧ ، وفي أوائل القرن الخامس ، عبر الالمان نهر الرين ، وغزوا الالزاس وجزءاً كبيراً من سويسرا واستمروها .

وفي سنة ٤٩٥ — ٤٩٦ غزام (كلوويس Clovis) ومنذ ذلك العهد ، صاروا جزءاً من الفرنجة Franks . ولا تزال لهجة الالمان مؤثرة الى اليوم في اللهجات السويسرية وفي نواحي من جرمانيا الجنوبية ، وخاصة ولاية بادن وبفاريه وأجزاء من الالزاس

مكتبة المقتطف

تأملات

في الفلسفة والأدب والسياسة والاجتماع

لمعالي احمد لطفي السيد باشا

هذه التأملات كانت خليقة بهذه النتائج التي أحدثتها في اتجاه الجيل الماضي الفلسفي والأدبي، والاجتماعي، والسياسي، وقد أدّت خير ما يمكن أن تؤديه، تلك الرسالات التي تتعهد الأجيال في بعض أطوار وكودها، فلا تزال تُشمّع عن عقلها تلك الظلمات، وتنضح عواطفها بذلك الري الروحي، وتوجهها الى الأهداف، وتوقظ حماسيتها، وتشعل حماستها، وتقوّي عقيدتها، وحسب هذه التأملات خلوداً، وتقديراً، انها استطاعت أن تتعهد الأمة في وقت اصطلحت عليها النكبات، وتعاورتها الكوارث، حتى تلبس عليها وجه الرأي، وعلا الصدأ ملكاتها، فقد كان بعض هذه الأفكار، والآراء يهوم في رأسها كما تهوم الأحلام، لا تأخذ وضعها الثابت، وبعضها كان لا يزال جنيناً لم يولد بعد، وبعضها عارضاً في حياته لم يفق، فأخذت تلك العبقرية تتولى كل هذا بالصقل، والتربية، والتعليم، حتى تهيأ لها أن تجدد ما خلق، وتقر ما اضطرب، وتهدي ما ضلّ، وتبلّ ما ظمأ، تأمله يتحدث عن الحرية — قائلاً: «لو كنا نعيش بالخبز والماء لكانت عيشتنا راضية وفوق راضية، ولكن غذاءنا الحقيقي الذي به نحيا ومن أجله نحب الحياة ليس هو اشباع البطون الجائعة بل هو غذاء طبيعي أيضاً كالخبز والماء ولكنه كان دائماً أرفع درجة وأصبح اليوم أعز مطلباً، وأغلى ثمناً، وهو ارضاء العقول والقلوب، وعقولنا وقلوبنا لا ترضى إلا بالحرية.

إنّا إذا طلبنا الحرية لا نطلب بها شيئاً كثيراً، انما نطلب الغذاء الضروري لحياتنا ، نطلب ألاّ نموت ، ولا يوجد مخلوق أقنع من الذي لا يطلب إلاّ الحياة ووسائل الحياة كما أنه لا أحد أقل كرماً من ذلك الذي يضن على الموجود الحي بأن يستوفي قسطه من الحياة» . بهذا الاسلوب الرصين ، المشرق ، المحكم ، وهذا الفكر المنطقي ، المتزن ، تناول — معلم الجيل وفيلسوفه — كثيراً من جوانب الحياة المصرية ، الفكرية ، والاجتماعية ، والأدبية ، والسياسية ، أمثال سلطة الأمة ، وفي سبيل الارتقاء ، وتضامننا — ومصريتنا ، ومن أجل الدستور ، والحرية الشخصية ، وآثار الجمال وجمال الآثار ، وربيع الحياة وغيرها . أرأيت هذه الآثار العبقرية فقدت شيئاً من جمال أدائها إذا قيست بنضج الأداء وخلوصه من التكلف والاضطراب في هذا العصر ، وهل تطامس شموخها المنطقي مع تطاول الزمن ، أليست تحمل ذلك الطابع التي تتحلى به خوالد الآثار الفكرية ؟ ان في بعث هذه الآثار التي استطاعت أن تخلص الجيل الماضي من تلك العقابيل التي كانت تحول بينه وبين الوثوب ، وتبعث نشاطه ، لأعظم الفوائد التي يجنيها شباب هذا الجيل من رياضة فكره على المنطق المحكم ، وتهذيب ذهنه في تعمق ما يعرض له من مشاكل ، وتهذيب بيانه مما يعتوره من الضعف والاضطراب ؟ وللاستاذ — اسماعيل مظهر — يدٌ لا تجحد في عنق هذا الجيل على عنايته بتمهيد ذلك المورد العذب الصفي ليسهل الارتواء منه في غير عنف ، والورود في غير مشقة .

محمد عبد الحليم أبو زيد

حواء الخالدة

ألف حضرة الأديب الفاضل الأستاذ محمود تيمور بك قصة تمثيلية عنوانها «حواء الخالدة» تدور على وقائع غرامية عربية ، بطلاها عنترة العبسي ، وعبلة ابنة مالك ، وهي مكتوبة بلغة عربية فصحى ، ومناظرها منقولة عن الحياة البدوية ، وأشعارها مقتبسة من الشعر القديم ، إذا استثنينا أنشودة واحدة . والقصة محوكة الأطراف متسلسلة الوقائع تحمل الأخلاق والعادات العربية تحليلاً بارعاً كأن مؤلفها الفاضل عاش في عصر عنترة وبين المضارب البدوية ، وهي مزية جميع القصص الأدبية التي ألفها الكاتب المقدر ، وأظهر فيها من براعة وسعة الاطلاع

ما جعله علماً من أعلام الأدب العربي في هذا العصر .

والقصة مطبوعة طبعاً أنيقاً على ورق مصقول ، وكلماتها مضبوطة بالشكل توخياً لصحة النطق بها ولها غلاف فني جميل، فنثني على جهود الأستاذ تيمور بك في خدمة اللغة والأدب .

ذكريات

بقلم شكري باشا شمشاعة — صفحاته ١٢٤ من القطع الكبير

طبع بمطبعة الاستقلال العربي بمصر

بعد ما عَدَتْ صروف الأيام على العهد الفيصلي في سوريا في سنة ١٩١٩ لاذ نفر عزيز من أحرار العرب ومفكريهم بأمارة شرقي الاردن واتخذوها حمى وملاذاً وفي طليعتهم سعادة شكري باشا شمشاعة فأسندت اليه أرفع المناصب فنهض بأعبائها على خير ما يرام وأمضى في ذلك القطر الشقيق زهاء ربع قرن كان خلاله موضع الاحترام والاعجاب من شرق الاردن حكومة وشعباً .

وأرادت نزعة الأدب في شخص شمشاعة باشا الانفلات والتحرر من قيود الوظيفة حتى حملته على هجران الوزارات والاعتكاف في دار متواضعة ليعمل في حقلي التصنيف والتأليف فجاءت باكورة آثاره القلمية كتاب « ذكريات » وقد طواه على قصص انتقادية في قالب (موضوعي) تحدث فيه عن نفر حياته حتى غرة شبابه بأسلوب متين وديباجة قوية ولغة مغناة ترق في مواضع حتى لتحسبها شعراً مرسلاً عذباً ، وقد هدف في بعض فصول من « ذكرياته » الى اصلاح ما التوى من أخلاق نفر من الناس .

وطريقته في مؤلفه الجديد صنوٌ للطريقة التي درج عليها « جون سوينت » في كل ما صنّف وألّف وفي أولها كتابه « رحلات جليفر » !

وإذا كان هذا الأثر الممتع أول ما أخرجه سعادته للناس فاننا لنرقب ذلك اليوم القريب الذي يخرج لنا فيه سعادته سائر مؤلفاته وتصانيفه وهي في الواقع روائع خطها قلم خصب وأوحى بها خيال مديد الأفق .

فهرس الجزء الرابع

من المجلد الثامن بعد المائة

٢٢٥ حوت العنبر : اسماعيل مظهر
٢٣١ حكومة القساوسة
٢٣٢ البراءة البابوية
٢٣٣ الرموز العلمية : فؤاد جميعان
٢٣٥ الفاطميون ورأيهم في الخلافة : عطية مصطفى مشرفة
٢٤٣ الزهد
٢٤٤ عاطفة (قصيدة) : عدنان مردم بك
٢٤٦ نسب العبيديين الفاطميين : ع . ش
٢٤٨ الهدنة الالهية
٢٤٩ ميلاد عصر الذرة : نقولا الحداد
٢٥٧ كيف تحفظ صحتك : نعمة اليل : فهمي عطا الله
٢٥٨ الربيع (قصيدة) : شاعر البراري
٢٥٩ سر القنبلة الذرية : جريس الشرايحة
٢٦٢ القيصرية في القرون الوسطى ، التسلطية في العصر الحديث
٢٦٣ أحدث المكتشفات التي أسفرت عنها الحرب الماضية : عوض جندي
٢٦٨ الالمان
٢٦٩ مكتبة المقتطف : تأملات في الفلسفة والادب والسياسة والاجتماع : محمد عبد الحليم أبو زيد . حواء الخالدة . ذكريات

لحق

الأزهر بين الماضي والحاضر

١ — ٨٩ بحث في تاريخ الأزهر وتطوره ومنزلته العلمية والدينية واتصاله بحياة الاسلام من قلم الاستاذ منصور علي رجب المدرس بكلية أصول الدين

لواحق المقتطف الشهرية

أبريل ١٩٤٦

الأزهر

بين الماضي والحاضر

تأليف

منصور علي رجب

مدرس الأخلاق بكلية أصول الدين

جميع حقوق الطبع محفوظة للمقتطف

طبع بمطبعة المقتطف بمصر

١٩٤٦

تصدير

خير ما يقدم به كتاب عن الأزهر الشريف ، أقدم جامعة في العالم ، ومناط الدين الحنيف ، ونبع الشريعة الفيّاض ، قصيدة شاعرنا الأكبر المرحوم شوقي بك ، فهي أجدر ما يحيّا به معهد ، يظل على هذا الوجود من سماء ألف عام .

***

قم في فم الدنيا وحيّ الأزهرا ... وانثر على سمع الزمان الجوهرا
واجعل مكان الدرّ إن فصّلته ... في مدحه حرز السماء النيّرا
واذكره بعد المسجدين[1] معظماً ... لمساجد الله الثلاثة [2] مكبرا
واخشع مليّا ، وانضِ حقّ أئمة ... طلعوا به زُهراً وماجوا أبحرا
كانوا أجلّ من الملوك جلالةً ... وأعزّ سلطاناً وأنفذ مظهرا
زمن المخاوف كان فيه جنابهم ... حرم الأمان وكان ظلّهم الذُرا[3]
من كل بحر في الشريعة زاخرٍ ... ويزيكه الخُلقُ العظيم غضنفرا
لا تحذُ حذوَ عصابة مفتونةٍ ... يجدون كل قديم شيء مُنكرا
ولو استطاعوا في المجامع أنكروا ... من مات من آبائهم أو عُمّرا
من كل ماضٍ في القديم وهدْيه ... وإذا تقدّم للنهاية قصّرا
وأتى الحضارة بالصناعة رثّةً ... والعلم زرّاً[4] والبيان مثرثرا[5]

***

يا معهداً أفنى القرونَ جدارهُ ... وطوى الليالي ركنه والأعصرا
ومشى على يبس المشارق نورُه ... وأضاء أبيض لجّها والأحمرا

---

(١) الحرام والأقصى . (٢) الحرام والأقصى والأزهر . (٣) الملأ . (٤) التقعر . (٥) غامط .

وأتى الزمان عليه يحمي سنَّة ... ويذود عن نسك ويمنع مشعرا (١)
في الغاضمين انتمى ينبرعه ... عذب الأصول كجدِّهم متحجرا (٢)
عِنٌّ من الفرقان (٣) فاض نميرها ... وحيا من الفصحى جرى وتحدَّرا (٤)
ما ضرَّني أن ليس أفقك مطلعي ... وعلى كواكبه تعلَّمت السُّرى
لا والذي وكلَّ البيان إليك لم ... أكُ دون غايات البيان مقصِّرا
لمَّا جرى الإصلاح قمت مهنِّئا ... باسم الخليفة بالمزيد مبشِّرا (٥)
نبأ سرى فكما المنارة حبرةٌ ... وزها المصلَّى واستخفَّ المنبرا (٦)
وسما بأروقة الهدى فأحلَّها ... فرع الثريَّا وهي في أصل الثرى
ومشى إلى الحلقات فانفرجت له ... حلقاً كهالات الضياء منوَّرا
حتى ظننَّا الشافعيَّ ومالكاً ... وأبا حنيفة وابن حنبل حُضَّرا
إن الذي جعل العتيق منابةً ... جعل الكِنانيَّ المبارك كوثرا (٧)
العلم فيه مناهلٌ وعجانيٌّ ... يأتي له النزَّاع يبغون القرى (٨)

***

اللهُ أكبرُ يا ابن اسماعيل (٩) لم ... تترك لصنَّاع المآثر مفخرا
بالأمس تنهضُ مصر في دستورها ... واليومَ تنهض للحاك الأزهرا
منَّ على الوادي السعيد، تقلَّبت ... أعطافه في وشيهنَّ منشرا
حرَّكنَ فيه النَّيل قبل وفائه ... فوفى، وهيَّجنَ الربيع مبكرا
الأزهر المعمور قُلِّد حُرَّة ... لك في الطبائع حرية ان تُنكرا
رُعيته عين العناية مصلحاً ... وأجلتَ فيه يدَ البناء معمِّرا
وعدٌ وعدت له، بوادر صدقه ... كالبرق لم يفترَّ حتى أمطرا

(١) الضمير للعبادة والمشعر موضع مناسك الحج (٢) علي بن أبي طالب كرم الله وجهه (٣) القرآن (٤) الحبر العالم والفصحى اللغة العربية (٥) الخليفة الشيخ لاسلامية (٦) المنارة المئذنة والحبرة السرور (٧) العتيق المسجد الحرام وشبَّهه بجمع الزمر (٨) النزاع القاصد والقرى الضيافة.

(٩) المقصود به الملك فؤاد الأول عليه رحمة الله.

وبلغتَ بالمعروف غاية صفوه أيكون معروف الملوك مكدرا؟
لم تبغ بالضعفاء عدواناً ولم تقذف على حرَم الشريعة عسكرا

***

نظراً واحساناً الى عُميانه وكُن المسيح مداويًا وعبرا
والله ما تدري : لعلَّ كفيفهم يوماً يكون أبا العلاء المبصرا
لو تشتريه بنصف مُلْكك لم تجد غبناً ، وجلَّ المشتري والمشترى
إن فاتهم من نور وجهك فائتٌ لم يعدموا لوجوه برّك منظرا
لوا ندالك كن يشاهد مزنةً ويد الضرير وراءها عين تَرَى[1]
زدهم أبا الفاروق انك خيّر من خيّر ولد الكريم الخيّرا

***

يا فتية المعمور[2] ماو حديثكم ندًّا بأفواه الركاب وعنبرا
المهد القدسيُّ كان نديُّه قطباً لدائرة البلاد ومحورا
ولدت قضيَّتها على محرابه وحبت به طفلاً وشبَّت معصرا[3]
وتقدمت تزجي الصفوف كأنها (جاندرك)[4] في يدها اللواء مظفرا

***

هُزُّوا القرى من كهنها ورقيمها أنتم لعمرُ الله أعصاب القرى
الغافل الأميُّ ينطق عنكو كالببَّغاء مردداً ومكرِّرا
يمسي ويصبح في أوامر دينه وأمور دنياه بكم مستبصرا
لو فكّر اختر للنيابة[5] جاهلاً أو للخطابة بقالاً[6] لتخيَّرا
ذُكر الرجال له فألَّه عصبةً منهم، وفسَّق آخرين، وكفَّرا[7]

---

(١) الزنة السحابة (٢) الازمر (٣) طفلا أي طفلة والمعصر الفتاة المدركة والقضية هي القضية السياسية في ثورة سنة ١٩١٩ (٤) فتاة فرنسية بتول قادت الجيوش الفرنسية في حرب مع الانجليز ثم أسرت وقتلت حرقاً (٥) في مجلس البرلمان (٦) قائل عربي ضرب به المثل في التفاهة.
(٧) صدقه رماه بالفسق ، وكفره رماه بالكفر

آباؤكم قرأوا عليه وردّدوا بالأمس تاريخ الرجال بزوّرا

***

كونوا سياج العرش والتمسوا له نصراً من الملك العزيز مؤزّرا
وتفيأوا الدستور تحت ظلاله كنفاً أهشّ من الرياض وأنضرا
لا تجعلوه هوًى وخلفاً بينكم ومجرّ دنيا للنفوس ومتجرا
اليوم صرّحت الأمور فأظهرت ما كان من خدع السياسة مضمرا

***

حظٌّ رجونا الخير من إقباله طيف المفرّق فيه حتى أدبرا
دار النيابة هيئت درجاتها فليرق في الدرج الذوائب والذرا[1]
الصّارخون إذا أسيء إلى الحمى والذّائدون إذا أغير على الثّرى
لا الجاهلين المطلحزون ولا الألى يمشون في ذهب القيود تبخترا

لقد أرسل هذه القصيدة في سنة ١٩٢٤ عندما بدىء بإصلاح الأزهر، وكانت الأمة قد انهكت وحبّتها فانتفضت عروتها، ولا نزال نعاني ذلك الانقسام حتى اليوم، فنرى المنتظم كأنه تمثيل لما كان عليه أحزاب هذه الأمة. فنحن اليوم من حيث الاجماع على غايات مصر الوطنية حيث تركناه في سنة ١٩٢٤. وما أثبتنا هذه القصيدة هنا وقدّمنا بها لحلا للبلغاء إلّا لنذكرهم، وإنّ الذكرى تنفع المؤمنين.

(١) المراد بالذوائب والذرا الطبقة المتقدمة من الأمة

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله . ربنا "لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا وهب" لنا من لدنك رحمةً إنك أنت الوهّاب .

دار حوار كثير في الأيام الأخيرة بين رجال الصحافة والقانون ثم البرلمان حول الازهر بمناسبة تعيين شيخ له خلفاً للمرحوم الاستاذ المراغي ، وشغل هذا الحوار جميع الطبقات تقريباً . ولفت نظري أن كثيراً من الناس لا يعلمون شيئاً عن الازهر ، لدرجة أني سئلت عنه غير مرّة أسئلة من رجال أعتقد انه لا يصح الجهل بها منهم ، ففكرت في أن أنشر صورة عن الازهر تعطي القارىء فكرة عنه وفي الوقت نفسه أرجو أن تكون باعثاً على العناية بأمر الازهر أقدم جامعة على ظهر الارض ومن أعظم مفاخر مصر في تاريخها الاسلامي .

ومن حسن الحظ أن أعطيت دفة سفينة الازهر الى رجل مصلح بطبعه جامعي بفطرته خبر النظام الجامعي في أوربا وفي غيرها ومنقف في الناحيتين الشرقية والغربية فهو قدير على السير به مع قافلة الزمن بما يناسب روح العصر ويتمشى مع ما ورثنا من عرف صحيح ، ذلك هو فضيلة الاستاذ الاكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق . وفضيلته علمٌ من أعلام الفكر ومؤمن من كبار المؤمنين المخلصين للأزهر الغيورين عليه المهتمين بشئونه فأملنا كبير فيه .

ولقد رجعت لهذا البحث الى : —

١ — كتاب دعائم الاسلام للقاضي أبي حنيفة النعمان — غير أبي حنيفة النعمان صاحب المذهب بل ذلك رجل كان مالكي المذهب ثم اعتنق مذهب الروافض وأصبح من كبار المؤلفين فيه — وهو مخطوط بالمكتبة الملكية تحت رقم ١٩٦٦٥ ب

٢ — شرح الاخبار لأبي حنيفة أيضاً وهو كسابقه تحت رقم ٢٠٦٢

٣ — مجموعة للسيوطي يقال انها بخط يده وهي بالمكتبة الازهرية تحت رقم ٢٠٤

٤ — البحر المحيط للزركشي وهو مخطوط أيضاً بمكتبة فضيلة الاستاذ سيد كلية أصول الدين الشيخ عيسى منون

٥ — خطط المقريزي « طبع مطبعة النيل »

٦ — حسن المحاضرة للسيوطي « مطبعة الموسوعات »

٧ — شذرات الذهب لابن العماد « نشر مكتبة القدسي »

٨ — الضوء اللامع للسخاوي « نشر مكتبة القدسي »

٩ — خلاصة الأثر للمحبي « نشر محمد باشا عارف »

١٠ — طبقات الشافعية الكبرى لابن السبكي طبع المطبعة الحسينية .

١١ — معجم المطبوعات العربية والمعربة لالياس يوسف سركيس بمكتبة مجمع فؤاد الأول للغة العربية تحت رقم ١٥٨٦

١٢ — الملل والنحل لشهرستاني على هامش الفصل لابن حزم « المطبعة الادبية »

١٣ — تهذيب الاسماء واللغات للنووي « المطبعة المنيرية »

١٤ — مقدمة المجموع للنووي أيضاً « المطبعة المنيرية » .

١٥ — مقدمة عمدة القاري للعيني « المطبعة المنيرية »

١٦ — المنتخبات لمعالي احمد لطفي السيد باشا

١٧ — تاريخ الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده للسيد محمد رشيد رضا

١٨ — الخطط التوفيقية لعلي باشا مبارك « المطبعة الاميرية »

١٩ — شرح ديوان ابن الفارض « المطبعة الازهرية »

٢٠ — عجائب الآثار للجبرتي « المطبعة الازهرية »

٢١ — دائرة المعارف الاسلامية

٢٢ — فوات الوفيات لابن شاكر

وقد سلكت في هذا البحث أولاً كلمة موجزة عن تاريخ الأزهر المادي ولم أشأ أن

أسترسل في هذه الناحية فقد تكلم فيها كثيرون . وقدمت لتاريخه العلمي بكلمة موجزة أيضاً عن الحركة العلمية الاسلامية بمصر قبل أن يكون الأزهر . وفي تاريخه العلمي أعطيت فكرة عن مذهب الروافض هؤلاء الذين أنشأوا الأزهر لخدمة مذهبهم كما أعطيته فكرة عن رأيهم في تفسير القرآن الكريم . ومثلاً عن فقههم الذي ابتدأ الأزهر حياته العلمية الرسمية به ونهجت هذا المنهج لأن هذا المذهب وما يتعلق به هو الذي كان يدرّس في الأزهر في أول حياته العلمية . بل لأجله أنشىء الازهر .

بعد ذلك تكلمت عن إنتاج الأزهر في بعض رجاله، وساقني هذا الى ذكر أشهر الكتب التي تدرّس فيه . وتكلمت عن ظاهرتين اثنتين أضرّتا بسير الدراسات الاسلامية وهي ظاهرة تحريم المنطق والفلسفة ، وظاهرة النهي عن التأليف وأن هذه الاخيرة وجهت انتاج الأزهر الى الشروح والحواشي والتقارير . وتكلمت عن مجهود الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده في اصلاح الأزهر مبيناً الخطوات التي خطاها الأزهر في سبيل هذا الاصلاح إلى أن وصل إلى هذه الحال التي نراها الآن . وذكرت رؤساء الأزهر من أول شيخ تولى أمره إلى الآن مبيناً كيف كان يدار قبل أن تنشأ وظيفة المشيخة مترجماً لبعض شيوخه تراجم مختصرة صدرتها بكلمة عن فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق شيخه الحالي . مبيناً بعض الحوادث التي وقعت فيه بسبب المشيخة . وأخيراً أتيت بإحصاء عن طلابه وعدد المتخرجين فيه في السنة الماضية وعن ميزانيته ومكتبته . ثم أدليت برأيي في توجيه الأزهر في هذا العصر الذري .

وعند الكلام على السيوطي في انتاج الأزهر نشرت تصديره عن أول سورة الفتح بتعليق فضيلة الأستاذ الأكبر عليه . فانه يعطينا مثلاً عن البحث والدرس والاشراف العلمي في ذلك الوقت وهذا التصدير كان موضوع الدرس الذي ألقاه فضيلته أمام جلالتي ملك مصر فاروق الأول ، وملك الجزيرة عبد العزيز آل سعود في الجامع الأزهر في ثاني يوم للزيارة الملكية في يناير ١٩٤٦ . كل هذا قدمته خالصاً لوجه الله والعلم ، والله ولي السداد والرشاد .

ربيع الثاني سنة ١٣٦٥ — منصور علي رجب
مارس سنة ١٩٤٦ — معز الجديدة :

كلمة

عن تاريخه المادي

بين حي الديلم في شمال القاهرة وحي الأتراك في الجنوب وبعد عام من فتح من يسمون أنفسهم الفاطميين مصر بنى جوهر الصقلي قائد جند المعز لدين الله الجامع الأزهر فكان أول مسجد أسس بالقاهرة وثالث مسجد بالديار المصرية . الأول جامع عمرو بالفسطاط . والثاني جامع احمد بن طولون بالقطائع . والثالث الأزهر بالقاهرة .

شرع جوهر في بنائه في جمادى الأولى سنة ٣٥٩ ، وكمل في رمضان سنة ٣٦١ هـ ، وفتح للصلاة في هذا الشهر الذي كمل فيه البناء .

وكتب جوهر بدائرة القبة التي في الرواق الأول كلمة تاريخها سنة ٣٦٠ هـ وهي على يمين المحراب والمنبر نصها بعد البسملة : « مما أمر ببنائه عبد الله ووليه أبو تميم معد الامام المعز لدين الله أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه وأبنائه الأكرمين على يد عبده جوهر الكاتب الصقلي وذلك في سنة ٣٦٠ هـ » وليس لهذه الكلمة الآن وجود .

ظلَّ الأزهر في عناية دولة الرافضة ، ولما دالت تغير الحال في عهد الأيوبيين إذ كانوا سنيين حاولوا محو كل أثر للدولة البائدة وحملوا كافة الناس على التزام مذهب أبي الحسن الأشعري .

وفي سنة ٧٠٩ هـ بنى الأمير علاء الدين طيبرس الخازندار نقيب الجيوش المدرسة الطيبرسية وجعلها مسجداً لله تعالى زيدة في الجامع الأزهر وجاء أقبغا عبد الواحد فبنى المدرسة الاقبغاوية سنة ٧٤٠ هـ وألحقها بالجامع الأزهر .

وفي سنة ٧٦١ هـ أحبَّ الأمير الطواشي سعد الدين بشير الجامدار الناصري عندما سكن بجوار الأزهر أن يؤثر فيه أثراً صالحاً . فاستأذن السلطان الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاون في عمارة الجامع فأذن له في ذلك . وكان قد استعدَّ بالجامع عدة مقاصير . ووضعت فيه

صناديق وخزائن حتى ضيقته فأخرج الصناديق والخزائن ونزع تلك المقاصير وتتبع جدرانه وسقوفه بالاصلاح حتى عادت كأنها جديدة وبيض الجامع كله وبلطه ومنع الناس من المرور فيه .

وفي سنة ٨٤٤ هـ شيد الطواشي جوهر القنقبائي المدرسة الجوهرية بالقرب منه عند بابه الصغير تجاه زاوية العميان — توفي جوهر في سنة انشائها فدفن بها — وهي مدرسة صغيرة ليس بها عمد وتشتمل على لوانين متقابلين وبها قبلة صغيرة .

وجاء الملك الأشرف ابو النصر قايتباي — توفي سنة ٩٠١ هـ — فأنشأ به ميضأة وفسقية وسبيلاً ومكتباً على باب الجامع . والملك الظاهر أبو سعيد قانصوه جاء فرتب به الخبز في شهر رمضان . ولما جاء الملك الأشرف قانصوه الغوري — آخر المماليك (٩٠٦ — ٩٢٢ هـ) — ضاعف ذلك في أيامه أضعافاً كثيرة وبنى المئذنة ذات البرجين .

وجاء عثمان كتخدا القزدوغلي فبنى زاوية العميان في سنة ١١٤٨ هـ .

وبعد ذلك جاء عبد الرحمن كتخدا — المتوفى سنة ١١٩٠ هـ — فكان من أكثر الناس إحساناً الى الازهر فهو الذي أنشأ المقصورة المعروفة الآن بين الازهريين « بالزيدة » أو بالليوان وهي أصغر من المقصورة القديمة وينفصلها عنها ليوان تمتد بطولها ارتفاعه أكثر من نصف ذراع وبنى بها محراباً للصلاة وأقام بها منبراً للخطابة .

وأنشأ لهذه المقصورة باباً عظيماً تجاه حارة الباطلية [1] وبنى بأعلاه مكتباً لتحفيظ أيتام المسلمين القرآن .

وإذا كانت الحملة الفرنسية قد أزالت بالازهر خسائر فادحة فان عطف الأسرة العلوية على الازهر يكتب لها بمداد الفخر . فالازهر يحتفظ لهذه الاسرة وبخاصة لمنشىء الازهر الحديث المغفور له الملك فؤاد الاول، يحتفظ له بآثار ستبقى خالدة خلود الدهر وقبل أن نرى هذا الأثر الخالد نجمل القول في تاريخ الازهر العلمي ونظامه الداخلي في عصوره القديمة مقدمين لذلك بكلمة موجزة عن الحركة العلمية الاسلامية بمصر قبل أن يكون الازهر .

---

(١) عرفت بهذه باسم الباطلية . وسبب هذه التسمية أن المعز لما فتح القاهرة وانتهى جوده فرقة فسألت البطاء قيل له فرغ ما كان معهم فقالوا بطل عنا فسموا الباطلية وعرفت هذه الحارة بهم والآن تعرف باسم بناوح « المقريزي »

كلمة

عن الحركة العلمية الاسلامية بمصر
قبل أن يكون الازهر

ابتدأت الحركة العلمية بمصر بعد الفتح بتحفيظ القرآن الكريم وأول من أقرأ القرآن بها رجل من الصحابة عهد فتح مصر هو عُبيْد بن عمر المغافري ويكنى أبا أمية [1] وكان يفتي المسلمين في أمور دينهم عبد الله بن عمرو بن العاص . وفي سنة ٣٦ هـ عرف المصريون نوعاً من الدرس لم يكن من قبل، ذلك هو التحدث في الترغيب والترهيب والفتن ، وأول من أوجد بمصر هـذا الدرس هو سليم بن عتر التجيبي [2] وهو أول من أوجد بمصر سجلاً في المواريث .

أخذت هـذه الحركة تنمو وتزداد عمقاً شيئاً حتى جاء يزيد بن حبيب في عهد عمر بن عبـد العزيز فزاد فيهـا كذلك عمقاً لم يكن ، ذلك انه كان أول من نشر العلم بمصر في الحلال والحرام [3] .

وإذا كان عمر ابن عبد العزيز قد جعل الفتيا بمصر الى ثلاثة رجال منهم يزيد بن حبيب هذا الذي وضع لبنة في أساس الحركة العلمية بمصر . فلقد جاء عبد الرحمن بن ميسرة مولى الملامس الحضرمي وزاد في درس القرآن الكريم بمصر عمقاً لم يكن ، ذلك انه كان أول الناس اقراء بمصر بحرف نافع . وعرفت مصر منه هذا الدرس قبل الخمسين ومائة [4] .

---

(١) خطط المقريزي جـ ٤ ص ١٤٣

(٢) من الطبقة الاولى من التابعين ولاه معاوية القضاء بمصر فمكث بها قاضياً عشرين سنة وتوفي سنة ٧٨ هـ (حسن المحاضرة للسيوطي جـ ١ ص ١٣٢) .

(٣) يزيد بن حبيب هذا هو أستاذ الليث بن سعد وكان الليث يقول عنه هو سيدنا وعالمنا توفي ١٢٨ هـ

(٤) توفي ابن ميسرة سنة ١٨٨ هـ وكان فقيهاً محدثاً شريفاً .

ولقد عرفت مصر في هذه الناحية طائفة جلية من أئمة القراءات منهم : عثمان بن سعيد الملقب بورش ولقد أخذ القراءة عن نافع وهو الذي لقبه بورش لشدة بياضه [١] .

على هذا النحو كان بمصر درس القراءات وتحفيظ القرآن الكريم بجواره درس القصص ودرس أحكام الشريعة وجد في هذا الدرس الأخير يزيد بن حبيب فتلميذه الليث بن سعد . وفي أيام الليث بن سعد هذا دخل مصر لعلم مالك عبد الرحيم بن خالد بن يزيد بن يحيى مولى جمح — توفى بالاسكندرية سنة ١٦٣ هـ — فروى عنه الليث بن سعد واشتهر مذهب مالك بمصر ولم يزل بها مشتهراً حتى قدم الى مصر محمد بن ادريس الشافعي في سنة ١٩٨ فصحبه جماعة من أهل مصر منهم الربيع بن سليمان . والمزني والبويطي وكتبوا عنه ما ألفه وحملوا به فاشتهر بمصر مذهب الشافعي كما اشتهر بها مذهب مالك من قبل .

أما مذهب أبي حنيفة فلم يكن أهل مصر يعرفونه كما يعرفون مذهب مالك والشافعي في ذلك الوقت . ويعلل المقريزي سبب رغبتهم عنه أن اسماعيل بن اليسع الكوفي الذي تولى القضاء بمصر بعد ابن لهيعة كان يذهب الى قول أبي حنيفة وكان مذهبه ابطال الاحباس ولم يكن هذا المذهب معروفاً بمصر لذلك ثقل عليهم أمره وشنعوه [٢]

ولهذه المناسبة نقول أن فقهاء الحنابلة لم يسمع عنهم بمصر إلاّ في القرن السابع وما بعده وذلك أن الامام احمد كان في القرن الثالث ولم يبرز مذهبه خارج العراق إلاّ في القرن الرابع . وفي هذا القرن ملك الروافض مصر واضطهدوا من كان بها من أئمة المذاهب الثلاثة وأقاموا مذهبهم كما عرفنا . ويقول السيوطي « إن أول امام علمت حلوله بمصر الحافظ بن عبد الغني المقدسي صاحب العمدة [٣] »

انتشرت الحركة العلمية الاسلامية بمصر بعد أن دخلها مذهب مالك والشافعي وبعد أن وفد عليها من وفد وظهر فيها من العلماء من ظهر ، وإذا أردت أن تتخيلها أكثر فتخيل الشافعي

---

(١) أصله مصري قبطي . نعتته الله ورياسة الاقراء بالديار المصرية في زمنه توفى سنة ١٩٧ راجع حسن المحاضرة للسيوطي ج ١ ص ٢٣٠

(٢) خطط المقريزي ج ٤ ص ١٤ (٣) راجع حسن المحاضرة للسيوطي ج ١ ص ٢٢٢ والمقدسي هذا توفى بالقاهرة سنة ٦١١ هـ .

يلقي درس الفقه بمسجد عمرو أو الربيع بن سليمان[١] يلقي درس الحديث بجامع احمد بن طولون ، وتخيل الشافعي وابن هشام قد اجتمعا ليتناشدا شعر العرب .

تخيلها في هؤلاء الأئمة قبل أن يكون الازهر .تخيلها في أئمة الحديث والنحو واللغة والشعر والأدب بجوار ما تقدم من أئمة الفقه والقراءات .

تخيل بمصر قبل أن يكون الأزهر . النسائي[٢] من أئمة الحديث وعبد الرحمن بن عمر ابن أبي الفهم[٣] وسليمان بن داود بن حماد[٤] من فقهاء المالكية والمزني[٥] والبويطي[٦] من فقهاء الشافعية . والقاضي بكار بن قتيبة[٧] وابن أبي عمران موسى بن عيسى البغدادي[٨] من فقهاء الحنفية وابن هشام[٩] وابن ولاد[١٠] من أئمة النحو واللغة وهذا ابن الحكم[١١] وسعيد بن يونس[١٢] وأبو عمر الكندي[١٣] من أئمة التاريخ وكثير عزة[١٤] وأبو تمام[١٥] والمتنبي[١٦] من الشعراء .

---

(١) صاحب الامام الشافعي وراوي كتبه والمؤذن بجامع الفسطاط . روى عنه أصحاب السنن الاربعة والطحاوي وأبو زرعه ، توفي سنة ٢٧٠ هـ .

(٢) كان يمكن بوفق التقاديل بجوار مسجد عمرو بالفسطاط . قال الذهبي هو أحفظ من مسلم . وقال أبو علي النيسابوري رافقت من أئمة الحديث أربعة منهم النسائي بمصر .وقال الحاكم كان النسائي أتقنهم مشايخ مصر في عصره وأعرفهم بالصحيح والسقيم من الآثار وأعرفهم بالرجال . له من المصنفات السنن الكبرى والصغرى وهي احدى الكتب الستة خرج من مصر سنة ٣٠٣ ومات بمكة (حسن المحاضرة للسيوطي ج ١ ص ١٦٣) (٣) روى عنه البخاري وأبو زرعه توفي سنة ٢٣٤ (٤) قرأ على ورش وروى عنه أبو داود والنسائي توفي سنة ٢٥٣

٥ : قال عنه الشافعي لو ناظر الشيطان لغلبه وقال عنه الزعفراني : المزني صاحب مذهب مستقل وله كتب كثيرة منها المبسوط والمختصر توفي سنة ٢٦٤ ودفن قريباً من للشافعي (٦) خليفة الشافعي في حلقته بعد حمله قاضي مصر فسعى به الى الواثق بالله أيام المحنة بخلق القرآن فحمل الى بغداد مقولاً مقيداً فحبس بها الى أن مات في القيد والسجن سنة ٢٣١ هـ (٧) قاضي الديار المصرية وممن روى عنه ابن خزيمة وله تصانيف في الشروط والوثائق والرد على الشافعي فيما نقضه على أبي حنيفة توفي سنة ٢٧٠ (٨) تلميذ محمد بن سماعة وحدث عن قاسم بن زكريا وهو شيخ الطحاوي توفي سنة ٢٧٥ هـ

(٩) هشام بن عمار بن نصير بن ميسرة ابن أسحق فارسي تنسب اليه توفي سنة ٢١٨ هـ (١٠) أبو محمد عبد الله بن ولاد مصنف كتاب الانتصار للبصرة وشيخ الديار المصرية في العربية توفي سنة ٣٣٢ هـ (١١) مصنف فتوح مصر وروى عنه النسائي وأبو حاتم (١٢) صاحب تاريخ مصر (١٣) صنف فضائل مصر وكتاب قضاة مصر وكان في زمن كافور (١٤) أقام بمصر مدة في كنف عبد العزيز بن مروان قال له قائل ما بال شعرك قد قصرت فيه فقال مات عزة وكيف أطيب ، وذهب الشباب فلا أعجب ، ومات عبد العزيز بن مروان فلا أرغب وما الشعر عن هذه الخلال . (١٥) كان في مصر يسقي الماء في مسجد عمرو توفي بالموصل سنة ٢٢٨ هـ (١٦) أقام بمصر مدة أربع سنين عند كافور الاخشيد يمدحه . قتل سنة ٣٥٤ هـ .

هذه الحركة العلمية الفريدة في ظل هؤلاء العلماء الذين كانوا في مصر مابين زائر ومقيم، لو قدّر لها أن تستمر كما كانت وتتأثر في اخلاص الشافعي لفقهه، والنسائي لحديثه، وابن هشام للغته، وأبي تمام لشعره، لو قدّر لها أن تستمر على هذا النحو بمصر في كل عصورها لتغير وجه التاريخ فيها، ليس في ذلك من شك.

ظلّ جامع عمر مهد الحركة العلمية في الفسطاط يسنده في ذلك جامع احمد بن طولون في القطائع حتى ملك الروافض مصر فبنوا القاهرة وبنوا فيها الأزهر.

تاريخه العلمي

اتفقت كلمة المؤرخين على أن أول تاريخ علمي للأزهر يبتدىء في صفر من سنة ٣٦٥هـ في هذا التاريخ ابتدأ علي بن النعمان القاضي أحد فقهاء مذهب الروافض يجلس في الأزهر ويملي مختصر أبيه في فقه المذهب، وكانوا يسمونه فقه آل البيت. وعلى هذا يكون هذا الكتاب المسمى «بالاختصار» أول كتاب درس في الأزهر في تاريخ حياته العلمية. ولقد هداني بحثي إلى أن هذا الكتاب غير موجود بمصر. وياحبذا لو أمر فضيلة مولانا الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر الشيخ مصطفى عبد الرازق بالبحث عن هذا الكتاب في مظان وجوده ليكون في مكتبة الأزهر تحفة تاريخية باعتباره أول كتاب درس فيه.

وافتتاح الأزهر داراً للعلم في ذلك التاريخ، كان في آخر عهد المعز لدين الله، أول خلفاء هذه الدولة بمصر. وفي عهد العزيز بالله بن المعز لدين الله سنة ٣٧٨ هـ. رُتب في الأزهر أول درس بمعلوم جار من قبل السلطان. وابتدأ الأزهر حياته العلمية بدرس الفقه بالمجان. وليس هذا فحسب، بل فوق هذا كان ينفق على طلبته ما يكفيهم، وبنيت لهم دار بجوار الأزهر ليقطنوا فيها. وكان هذا التشجيع بالانفاق والسكنى في أيام وزارة يعقوب بن كلس الذي لم يكتف بهذا بل كان يعطيهم هو أيضاً من ماله الخاص في كل سنة.

ابتدأ الأزهر حياته العلمية بخمسة وثلاثين طالباً. ولم يشجع هؤلاء بما رأينا فحسب، بل كان هناك لون آخر من ألوان التشجيع. فيحدثنا المقريزي أن العزيز بالله «خلع عليهم في يوم عيد فطر وحملهم على بغلات». ولم يكن الأزهر في ذلك العهد مقصوراً على الرجال فحسب، بل كان للمرأة فيه نصيب فكنّ يفردنّ فيه بمجلس خاص [1].

(١) خطط المقريزي ج ٢ ص ٢٢٩

وقد يكون من الحسن بهذه المناسبة أن أقول إن المرأة المسلمة بمصر وغير مصر كانت تصل الى درجة من الثقافة بحيث يجاز لها بالتدريس والافتاء . ومدلول الاجازات من الأساتذة في ذلك العصر كان يساوي الشهادات عندنا الآن . فمثلاً يحدثنا ابن العماد صاحب شذرات الذهب أن ضياء الدين بن منصور السعدي المقدسي الحنبلي محدث عصره سمع بدمشق من ابي المجد البانياني وابن الموازيني وغيرهما . وبمصر سمع من البوصيري وفاطمة بنت سعد الخير .

وسمعت فاطمة بنت مؤرخ الشام ابن عساكر من ابن طبرزد وأجاز لها الصيدلاني . وكانت كريمة بنت عبد الوهاب المعروفة ببنت الحنبلي راوية وأجاز لها مسعود الثقفي . وروت هدية بنت عبد الحميد المقدسية الصحيح عن الزبيدي . وما أريد أن استطرد في ضرب الأمثال فأمر هذا مشهور . وإذا كان من الحسن أن استطردنا بهذه الكلمة عن المرأة . فقد يكون من الواجب أن نعرف شيئاً عن فقه الروافض الذي ابتدأ الأزهر حياته العلمية به .

حكم أصحاب هذا المذهب مصر أكثر من قرنين اثنين من سنة ٣٥٨ هـ الى سنة ٥٦٧ هـ نشروا فيها مذهبهم بكل الوسائل . ومذهبهم هذا هو مذهب الاسماعيلية الباطنية . وقال هذا المذهب هو المذهب الرسمي لمصر يعمل به القضاء والفتيا اذا استثنينا فترة وجيزة جلس فيها القضاء بمصر أربعة قضاة يحكم كل منهم بمذهبه ويورث على مقتضاه . أحدهم اسماعيلي وثانيهم امامي ، وثالثهم مالكي ، والرابع شافعي . وكانت هذه الفترة في سنة ٥٢٥ هـ بعد أن استولى على الوزارة بطريق الثورة احمد بن الأفضل شاهنشاه ابن امير الجيوش . ولكن هذا النظام لم يدم بل عاد الى ما كان عليه لمذهب الاسماعيلية بعد أن قتل الوزير في سنة ٥٢٦ هـ . واستمر العمل به وأنكر ما عداه الى أن جاء صلاح الدين الأيوبي فصرف قضاة هذا المذهب وفوض القضاء لصدر الدين عبد الملك بن درباس الشافعي فلم يفت عنه في اقليم مصر الا من كان شافعي المذهب فتظاهر الناس بغيره واختفى مذهب الاسماعيلية من أرض مصر وكانت منهم بقية في الصعيد في زمن علي بن وهب القشيري الشهير بابن دقيق العيد — توفي بقوص ٦٦٧ هـ — فأجرى مذهب أهل السنة وأزال مذهب الروافض .

كان مذهب الروافض هذا يقوم على أسس منها نظرية الوصية وليس هذا مكان الكلام

على هذه النظرية ومن أين نبتت بل يكفي أن نقول : إن أول من دعا اليها في الاسلام هو عبد الله بن سبأ الملقب بابن السوداء «أسلم سنة ٢٩ هـ . في خلافة عثمان» وأخذ يطوف بهذه النظرية البلدان الاسلامية ومنها مصر وانتهى به المطاف الى المدينة حيث قامت الثورة على عثمان .

* * *

ونظرية الوصية هذه ترمي الى أن النبي صلوات الله عليه قد وصى لعلي بالخلافة من بعده، وعليٌّ عند سائر فرق الروافض إمام معصوم مفروضة طاعته فيجمعهم القول بامامته نصًّا ووصاية ، وبأن الامامة لا تخرج عن أولاده ، وان خرجت فبظلم يكون من غيره أو بتقية « حذر » من عنده . فليست الامامة قضية مصلحية تناط باختيار العامة . ويقام الامام بتنصيبهم بل هي قضية أصولية وهي ركن من أركان الدين لا يجوز للرسول إهماله وإغفاله ولا تفويضه الى العامة وإرساله .

وعندهم أن الاسلام بني على سبع دعائم روى في كتاب« دعائم الاسلام» عن جعفر بن محمد أنه قال : بني الاسلام على سبع دعائم . الولاية وهي أفضلها وبها وبالوالي يوصل إلى معرفتها . والطهارة . والصلاة . والزكاة . والصوم . والحج . والجهاد . وكتاب دعائم الاسلام هذا الذي وردت فيه هذه الرواية هو للقاضي أبي حنيفة النعمان . وكتابه هذا من أمهات كتبهم حتى ان الظاهر جعل جائزة مالية لمن يحققه وهذا الكتاب موجود منه الجزء الاول بالمكتبة الملكية وهو بالتصوير الشمسي مأخوذ عن نسخة خطية بتحف اليمن .

ويستدلون على أن النبي صلوات الله عليه قد وصى لعلي بالخلافة من بعده بحديث غدير خُم — غدير خُم على بعد ثلاثة أميال من الجحفة بسرة الطريق — وهذا الحديث موجود في كتاب شرح الاخبار وهو أيضاً للقاضي أبي حنيفة النعمان . ورواه احمد في مسنده ونقله عنه المقريزي بعبارة تختلف عن عبارة شرح الأخبار والحديث موجود بالمسند ج ٢ ص٣٣٢، ج ٣ ص ١٢٠ ، ١٤٥ ، ج ٤ ص ١٠٢

ولهذا كانوا يعتقدون أن أبا بكر وعمر قد خرجا على هذا النص . وأنقل هنا بيتين جاءا في كتاب شرح الأخبار بالصفحة ١٧٧ تحت عنوان « لله درّ القائل » وكتاب شرح

الأخبار هذا هو الذي تقدّم ذكره للقاضي أبي حنيفة النعمان . وقد اطلع عليه المعز لدين الله بعد أن ألف فأثبت منه ما أثبته وأسقط منه ما أنكره . وها هي ذي الأبيات :

صدّيقهم بعد النبي تزندقا وكذاك فاروق الصحابة فرّقا

بين النبي وآله ووصيه والمسلمين درا بذا من حققا

وكانوا يذهبون الى تأويل آي القرآن الكريم تأويلاً يتمشى مع عقيدتهم في الأمامة . فمثلاً يرون في قول الله تعالى « أمْ يحسدُون الناس على ما آتاهم الله من فضله » يرون أنهم هم الناس المحسودون على ما آتاهم الله من الأمامة دون خلق الله جميعاً .

وفي قول الله تعالى « إن الله يأمركم أن تؤدُّوا الأمانات الى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » يقولون إيانا عنى بهذا أن يؤدي كل إمام لمن يكون بعده الكتب والعلم والسلاح .

« يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين » يقولون نحن الصادقون . وهذا الرأي في تفسير هذه الآيات نقلته عن كتاب دعائم الاسلام من صفحة ١٥

والى هنا أظنني قد صوّرت الى حدّ ما بعض ما كان يدرس في الأزهر في فجر حياته العلمية وأعطيت القارىء فكرة عن المذهب من ناحية العقيدة كما أعطيته فكرة عن رأيهم في بعض تفسير آي القرآن المجيد .

بقي أن نعرف شيئاً عن درس الفقه .

خالفوا في كثير منه ما اتفقت عليه المذاهب الأخرى . فمثلاً أمروا بألاّ يرث مع البنت أخ ولا أخت ولا عم ولا جد ولا ابن أخ ولا ابن عم . ولا يرث مع الولد الذكر أو الأنثى إلاّ الزوج أو الزوجة والأبوان والجدّة ، ولا يرث مع الام إلاّ من يرث مع الولد[1] .

واكتفينا في هذا بالنقل عن المقريزي ، وكان يحسن أن نُنقل عن كتب القوم أنفسهم في الفقه

وبهذا حكموا من غير حكمهم بمصر وكانوا يعتبرون الخروج على هذه الاحكام عداوة للدولة .

(١) خطط المقريزي جـ ٤ ص ١٥٦

جاءوا للصوم فأمروا بأن يبدأ من اليوم الذي يرى في عشيته الهلال ، وأوّلوا لذلك الحديث القائل : « صوموا لرؤيته وافطروا لرؤيته » فقالوا معناها صوموا اليوم الذي يرى في عشيته الهلال كما يقال تهيئوا لاستقباله فيتقدم التهيؤ على الاستقبال .

واضطرهم إلى ذلك كله مذهبهم في أوائل الشهور فكانوا يرون أن ستة أشهر من السنة تامة وستة أشهر ناقصة وأن كل ناقص منها فهو تال لتامّ . فلما قصدوا استخراج الصوم والفطر على هذا الحساب خرج قبل الواجب بيوم في أغلب الاحيان فأوّلوا الحديث وصاموا على مذهبهم هذا الذي ينسبونه الى جعفر بن محمد الصادق وزعموا أنه سرٌّ من أسرار النبوّة (١) .

هذا وقد أمر القوم بأن يؤذن لصلاة الظهر في أول الساعة السابعة ، ولصلاة العصر في أول الساعة الثامنة « بالعربي » وكانوا يسمون صلاة الضحى وصلاة التراويح .

***

كان مذهب الروافض هو المذهب السائد في دولته ، وتزعّم الأزهر تدريسه وما يتصل به ، يسنده في ذلك جامع عمرو ، ومجلس الفقهاء في دار الوزير يعقوب ابن كلس ، صارت هذه الحركة العلمية التي يحمل لواءها الأزهر على هذا النحو واشتدت لما أن فتحت دار الحكمة في عهد الحاكم بأمر الله ثالث خلفاء هذه الدولة بمصر . وبعد أن افتتح الأزهر حياته بدرس الفقه أصبحت الدائرة تتسع لغيره من العلوم وأصبح بجوار الأزهر من يشد أزره في الحركة العلمية فأصبح الأطباء ، والمنجمون ، بجوار الفقهاء والنحاة وأهل اللغة .

وكان الأزهر بجوار ذلك محلاً لتقاليد الروافض في الموالد والمواسم . فكان بيتاً من بيوت الله ، ومدرسة للعلم . ومكاناً لهذه التقاليد .

على هذه الصورة صار الأزهر مدة حكم الروافض .

---

(١) ج ٢ ص ٣٨٨ خطط المقريزي نقلا عن ابن الزيحان البيروني في كتابه « الآثار الباقية عن القرون الخالية » .

وفي عهد الأيوبيين تغير الحال إذ كانوا سنيين فحاولوا محو كل أثر للدولة البائدة ، وحملوا كافة الناس على التزام مذهب أبي الحسن الأشعري [١] .

فمنع صلاح الدين الأيوبي الخطبة من الجامع — بحجة امتناع اقامة خطبتين في بلد واحد كما هو مذهب الشافعي — [٢] وأقرها بالجامع الحاكمي لأنه أوسع . وقطع عن الأزهر كثيراً مما أوقفه عليه الحاكم ، ومكثت الخطبة معطلة من الجامع الأزهر نحو قرن من الزمان . وأخذ صلاح الدين الأيوبي في عمل شيء لم تعرفه مصر في تاريخها الاسلامي ذلك أنه شرع في بناء المدارس فبنى مدرسة للشافعية بجوار قبر الامام الشافعي من القرافة سماها المدرسة الناصرية فكانت أول مدرسة أنشئت بالديار المصرية وكان ذلك في سنة ٥٦٦ هـ ولما كملت وقف عليها الصاغة . وبعد أيام شرع في بناء مدرسة أخرى للمالكية بجوار جامع عمرو أيضاً سماها المدرسة القمحية ، ووقف عليها قيسارية بمصر وضيعة بالفيوم تعرف بالخيوشية ، وكانت تدر القمح على الطلاب فنسبت اليه . وبذلك عرفت مصر نوعاً جديداً من دور العلم ليست لها به عهد من قبل وعلى هـذا يعتبر صلاح الدين الأيوبي أول من أحدث إنشاء المدارس بالديار المصرية .

وفي سنة ٥٧٢ هـ أنشئت مدرسة للحنفية في القاهرة اسمها السيوفية ، وهي أول مدرسة وقفت على الحنفية بديار مصر . ثم أخذت تكثر بعد ذلك المدارس حتى أن المقريزي في خططه ترجم لخمس وسبعين مدرسة . وبهذه المناسبة أقول إن البلدان الاسلامية لم تنشأ فيها مدرسة إلاّ بعد الأربعمائة من سني الهجرة . وأول من حفظ عنه أنه بنى مدرسة في

(١) توفي سنة ٣٢٤ هـ وقيل بضع وثلاثين وثلثمائة . تلمذ لزوج أمه — محمد بن عبد الوهاب الجبائي — في الاعتزال عدة سنين حتى صار من أئمة المعتزلة ثم رجع عن ذلك متخذاً بين النفي الذي هو مذهب الاعتزال وبين الاثبات الذي هو مذهب أهل التجسيم . صعد يوم الجمعة كرسياً ونادى بأعلى صوته : من عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني فأنا أعرفه بنفسي . أنا فلان بن فلان ، كنت أقول : بخلق القرآن ، وأن الله لا يرى بالأبصار ، وأن أفعال الشر أنا أفعلها ، وأنا تائب مقلع فمال اليه جماعة وعولوا على رأيه منهم : أبو إسحق الاسفرايني وأبو إسحق الشيرازي . فانتشر المذهب في العراق أولاً وانتقل منه الى الشام ومصر على يد صلاح الدين الأيوبي .

(٢) كان صلاح الدين قد قلد وظيفة القضاء الشافعي الذي هو صدر الدين عبد الملك بن درباس فعمل بمقتضى مذهبه ومنع صلاة الجمعة في الأزهر .

الاسلام أهل نيسابور فبنيت بها المدرسة البيهقية . وبعد أن ذهبت هذه الدولة وجاء عهد المماليك اعتنى الملك الظاهر بيبرس بأمر الازهر فأعاد اليه خطبة الجمعة في الثامن عشر من ربيع الأول سنة ٦٦٥ هـ وشجع العلم فيه وحذا حذوه كثير من الأمراء فزاد الأمير بيبك الخازندار مقصورة كبيرة رتب فيها جماعة من الفقهاء لقراءة الفقه على مذهب الشافعي . ورتب فيها محدثاً ، ومبلغة لقراءة القرآن ، ووقف على ذلك الأوقاف الدارة .

وفي سنة ٧٦١ هـ أحبَّ الأمير الطواشي سعد الدين بشير الجامدار الناصري عند ما سكن بجوار الأزهر أن يؤثر فيه أثراً صالحاً فأنشأ فيه مما أسداه إليه درساً لفقه الحنفية باقي في المحراب الكبير ، ووقف على هذا الدرس أوقافاً محلية .

على هذا النحو سار الأزهر في عناية المماليك ، غير أنا نلاحظ أن الجامع الحاكمي أخذ ينافس الأزهر بعد أن أصلح من زلزال سنة ٧٠٢ هـ فلقد جاء الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير فأنشأ بالجامع الحاكمي دروساً أربعة لاقراء الفقه على مذاهب الأئمة الأربعة ، ودرساً لاقراء الحديث النبوي ، وجعل لكل درس مدرساً وعدَّة كثيرة من الطلبة ، فرتب في تدريس الشافعية قاضي القضاة بدر الدين محمد بن جماعة الشافعي ، وفي تدريس الحنفية قاضي القضاة شمس الدين احمد السروجي الحنفي ، وفي تدريس المالكية قاضي القضاة زين الدين علي بن مخلوف المالكي ، وفي تدريس الحنابلة قاضي القضاة شرف الدين الجوائي ، وفي درس الحديث الشيخ سعد الدين مسعود الحارثي ، وفي درس النحو الشيخ أثير الدين أبا حيان ، وفي درس القراءات السبع الشيخ نور الدين الشطنوفي ، وفي التصدير لافادة العلوم علاء الدين علي بن اسماعيل القونوي ، وفي مشيخة الميعاد والمسجد عيسى بن الخشاب ، وأنشئت به مكتبة جليلة ، وجعل فيه عدَّة متصدرين لتلقين القرآن الكريم ، وعدَّة قراء يتناولون قراءته ، ومعلماً يقرئ أيتام المسلمين كتاب الله عزَّ وجل . وأوقفت على ذلك الأوقاف الدارة بناحية الجيزة ، والصعيد ، والاسكندرية [1]

وأكبر الظن عندي أن المرسوم الملكي الذي أصدره الملك الظاهر برقوق والذي كان يقضي :

---

[1] خطط المقريزي ج ٤ ص ٥٧

« بأن من مات من مجاوري الأزهر من غير وارث شرعي وترك موجوداً فانه يأخذه المجاورون بالجامع » .

أكبر الظن عندي أن هذا المرسوم كان لتقوية الأزهر بعد أن طغت عليه المدارس والجامع الحاكمي . ولم يكتف الظاهر برقوق باصدار المرسوم بل أمر بنقشه على حجر عند الباب الكبير البحري ليكون بمثابة اعلان دائم .

وهذا المرسوم ظاهرة فذّة في تاريخ الأزهر فلقد جعل الطلبة أسرة واحدة وربط بينهم برباط كرباط النسب .

ونستطيع أن نعرف شيئاً عن نظامه والعلوم التي كانت تدرس فيه وبخاصة أيام المماليك الذين أنقذوه من اضمحلال الايوبيين السنيين ؟ بما يقدمه المقريزي . فلقد قدم لنا صورة لا بأس بها نرى فيها شيئاً عن علومه ونظامه وعدد طلبته وما كان يجري فيه قال :

« وفي سنة ٨١٨ هـ ولي نظر هذا الجامع مع الأمير سودوب القاضي حاجب الحجاب فجرت في أيام نظره عدّة حوادث لم يتفق مثلها وذلك أنه لم يزل في هذا الجامع منذ بني عدّة من الفقراء يلازمون الاقامة فيه وبلغت عدتهم في هذه الأيام ٧٥٠ رجلاً ما بين عجم وزيالعة ومغاربة ومن أهل ريف مصر ولكل طائفة رواق يعرف بهم فلا يزال الجامع عامراً بتلاوة القرآن ودراسته وتلقينه والاشتغال بأنواع العلوم . الفقه والتفسير والحديث والنحو ومجالس الوعظ وحلق الذكر وصار أرباب الأموال يقصدون هذا الجامع بأنواع البر من الذهب والفضة اعانة للمجاورين فيه على عبادة الله تعالى . وكل قليل تحمل اليهم أنواع الاطعمة والخبز والحلاوات لاسيما في المواسم . فأمر هذا النائر في جمادى الاولى من هذه السنة باخراج المجاورين من الجامع ومنعهم من الاقامة فيه واخراج ما كان لهم فيه من صناديق وخزائن .

في هذه الصورة نرى أن الأزهر كان في ذلك الوقت فوق كونه مدرسة لطلب العلم تدرس فيها العلوم المختلفة ومسجداً للعبادة ومكاناً للوعظ كان بجوار ذلك داراً للتصوف . وتروي دائرة المعارف الاسلامية عن ابن أياس أن ابن الفارض الصوفي كان مقيماً بالازهر . ويروي رشيد بن غالب صاحب شرح ديوان ابن الفارض أن والد عمر بن الفارض حين

امتنع أن يقبل وظيفة قاضي القضاة ونزل عن حكم القاهرة ومصر بالنيابة عن الخليفة اعتزل الناس وانقطع الى الله تعالى بقاعة الخطابة بالجامع الازهر . ولعلّ ابنه كان يقيم معه بعد ان كان يعود من سياحته في جبل المقطم. وعلى كلٍّ فقد كانت المساجد والمدارس في ذلك الوقت مفتوحة للرياضة الروحية بجوار درس العلم. وكانت المدارس والمساجد تقبل طلاّب التصوف كما كانت تقبل طلاّب العلم ، وتفتح صدرها لهؤلاء كما تفتح صدرها لأولئك . فنلاً البدر العيني صاحب عمدة القاري شرح صحيح البخاري حينما حضر الى القاهرة مع شيخه العلامة السيراني سنة ٧٨٨ هـ جعله الظاهر برقوق في عداد صوفية البرقوقية .

وبنى الأمير الكبير سيف الدين شيخو الناصري لما أنشأ مسجده جعل فيه عشرين صوفيًّا وأقام الشيخ أكمل الدين محمد بن محمود الرومي الحنفي شيخاً لهم . ثم لما عمر الخانقاه تجاه الجامع نقل الأكمل والصوفية اليها وزاد عددهم .

ويحدثنا صاحب خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر: أن الشيخ احمد بن عيسى ابن غلاّب المنعوت بشهاب الدين الكلبي المالكي شيخ المحيّا النبوي بالأزهر أخذ التصوف عن الشيخ الشعراني وجلس بالمحيّا الشريف بعد والده ، ووالده جلس بعد الشيخ البلقيني وهو جلس بعد الشيخ صالح، وهو جلس بعد الشيخ نور الدين الشوني المدفون بزاوية الشيخ عبد الوهاب الشعراني .

بناء على كل هذا نستطيع أن نقول إن دور العلم ومنها الازهر في ذلك الوقت كانت تعرف لوناً من التعليم لايتصل بقاعدة منطقية أو نكتة بلاغية ، وإنما يتصل بمسألة روحية الغرض منها تطهير النفس وتصفيتها مما علق بها من أوزار الجسد حتى صار الأزهر بعلومه ورياضته الروحية قبلة المسلمين في جميع بقاع الارض حتى فاق المساجد والمدارس الأخرى في مصر وغير مصر ، بقي أن نتساءل :

لِمَ تسابق أهل الخير في حبس الأموال على الأزهر والاحسان إليه وفي مصر مساجد كثيرة منها ما هو أقدم من الأزهر، ومنها ما هو أوسع منه ؟ ولِمَ تزعم الأزهر هذه المدارس وهذه المساجد ؟ . إن الأزهر بحكم الظروف التي أحاطت به من يوم أن أنشىء أخذ صبغة دينية لم تكن لغيره من المساجد والمدارس فلقد أوجد لمذهب ديني هو مذهب الرافضة واضطهده

بعد ذلك رجال مذهب ديني هم الأيوبيون السنيون. ثم جاء المماليك فرفعوا عنه ما حلّ به من ظلم الايوبيين فخرج من هذا الصراع المنيف بشهرة يضاف إليها أن كان محلاً لاهل الطرق الصوفية يحيون به مجالس الذكر بجوار دروسه العلمية وإيوائه الفقراء والمعوزين. لكل هذا أخذ صبغة دينية قوية تقرّب اليها المتقرّبون لمحض الخير أو السياسة. فخيرات الأزهر ولشهرة مصر في العلوم والفنون وبخاصة بعد أن سقطت بغداد على يد التتار وهاجر إليها كثير من علماء بغداد بقي الأزهر في شهرة عالمية ومكانة خاصة في العالم الاسلامي. ونظرة عامة لمن يؤمه من مختلف البلدان تعطينا فكرة عن مقدار هذه المكانة ومبلغ الاقبال عليه، ولننظر إليهم فيما كان لهم من أروقة يقيمون فيها، في الأزهر ستة وعشرون رواقاً وهم:

١ — رواق الصعايدة: وهو أعمر أروقة الأزهر من إنشاء الأمير عبد الرحمن كتخدا.

٢ — رواق الحرمين: مكة والمدينة: وهو رواق صغير بداخل باب المقصورة الجديدة.

٣ — الدكارنة: خاص بأهل التكرور وسنار ودارفور وغيرها.

٤ — الشوام: عن يمين الداخل من باب الشوام. يقال إنه من إنشاء السلطان قايتباي، ثم زاد فيه الأمير عثمان كتخدا، ثم الأمير عبد الرحمن كتخدا.

٥ — الجاوة: بين رواق السليمانية ورواق الشوام وهو لاهل جاوة وغيرهم من أدنى جزر الهند الشرقية.

٦ — السليمانية: بين باب الشوام ورواق الجاوة وهو لأهل أفغانستان وخراسان.

٧ — المغاربة: بالجانب الغربي من صحن الجامع على يمين الداخل من باب المغاربة مكتوب على بابه «أمر بتجديده مولانا وسيدنا السلطان الملك الاشرف قايتباي على يد الخواجا مصطفى بن الخواجا محمود غفر الله لهم». وهو رواق كبير هام.

٨ — السنارية: عن يمين الداخل من باب المغاربة. أنشأه المغفور له محمد علي باشا.

٩ — الأتراك: عن يسرة الداخل من باب المغاربة.

١٠ — البرنية: لاهل برنيو وما جاورها. بين رواق الاتراك ورواق اليمنية

١١ — الجبرتية: لأهل بلاد الصومال. في داخل رواق البرنية.

١٢ — اليمن: لاهل جنوبي بلاد العرب. بجوار رواق البرنية.

١٣ — الأكراد : عن يمين الداخل من باب المزينين.
١٤ — الهنود : عن يمين الداخل من باب المزينين .
١٥ — البغدادية : بأعلى رواق الهنود وهو للبغداديين من أهل العراق .
١٦ — البحاروة : عن شمال الداخل من باب المزينين بابه الى الصحن
١٧ — الفيومية : بين رواق البحاروة ورواق الشنوانية في الزاوية الشرقية من الصحن
١٨ — الاقبغاوية : بمدرسة الاقبغاوية وله باب على رواق الفيومية .
١٩ — الشنوانية : يعرف أيضاً برواق الأجاهرة ورواق الواطية وهو بجوار رواق الفيومية . لاهل الاجاهرة الواطية من جنوب الدلتا .
٢٠ — الحنفية : خلف رواق القشنية والشنوانية والفيومية بين مرافق الميضأة الكبرى وبابه الى الصحن . هذا الرواق أراد عباس باشا الأول أن يبنيه لأهل بلدة الشيخ الباجوري ثم مات ولم يتمه فأكمله راتب باشا الكبير .
٢١ — القشنية : بين باب رواق الحنفية وباب الميضأة وبابه الى الصحن .
٢٢ — ابن معمر : عن يمين الداخل الى الميضأة وهو رواق عام لجميع الأجناس .
٢٣ — البرابرة : عن شمال الداخل من باب المقصورة الشرقي وهو عبارة عن خزن ودواليب.
٢٤ — دكارنة صليح : لأهل اقليم بحيرة شاد وهو بجوار رواق الشرادوة وهو أيضاً مجرد خزن ودواليب .
٢٥ — الشرقاوة : في النهاية البحرية من المقصورة القديمة ويكنه فقراء الشرقية أنشأه الأمير ابراهيم بك الوالي تخليداً لذكرى الشيخ عبد الله الشرقاوي .
٢٦ — الحنابلة : بجوار زاوية العميان أنشأه عثمان كتخدا متشيء زاوية العميان [1]

وإذا كان في هذا ما يدلنا على شهرة الأزهر ومكانته في العالم الاسلامي فما يدلنا أيضاً على قداسته في هذا العالم أن كان يطلب إلى شيوخه من السلاطين أن يقرأوا لهم صحيح البخاري ويدعوا لهم بالنصر .

قال علي مبارك باشا في خططه وفي رجب سنة ١٢٠٢ هـ حضر إلى مينا بولاق أغا أسود وعلى يده مقرر لعبدي باشا وخلعة لشريف مكة وصحبته ألف قرش رومي أرسلها حضرة السلطان تفرّق على طلبة العلم بالأزهر ويقرأون له صحيح البخاري ويدعون له بالنصر .

(١) خطط مصر القديمة لعلي مبارك باشا ج ٤ ص ... وما بعدها ودائرة المعارف الاسلامية الطبعة الاولى ص المجلد الثاني ص ٣٥٥

انتاج الازهر

الأزهر فكرة نبتت في الأصل لخدمة مذهب معين ، ولذلك كان مع الزمن ميداناً لصراع مذهبي عنيف بين المؤيدين والمعارضين من ناحية ، وبين دولة تبيد وأخرى تنهض من ناحية أخرى . ومن حسن حظ الأزهر أن كان هذا الصراع فانه قد خدمه ووطد أركانه وربّ ضارة نافعة . خدمه حتى أضحى يحمل علم الدراسات الاسلامية وما يتصل بها من قرب أو من بعد ، وبخاصة بعد أن سقطت بغداد على أيدي التتار . سار الأزهر في هذا التاريخ الطويل العريض كل كائن حي ينهض آناً ويتغير آناً آخر . ولكن الذي لا ينكر والذي هو واضح وضوح الشمس في رابعة النهار أن الأزهر في هذا التاريخ الطويل قد خدم الاسلام والمسلمين في دينهم ولغتهم خدمات جليلة ، بل لقد خدم العالم أجمع بضرب الأمثال في الاخلاص للحق ، وكانت الرياضة الروحية من خصائصه المميزة له .

عرفت مصر في ظل الأزهر نخبة ممتازة من أعلام الفكر ، وأئمة الدين ، وكبار المصلحين . فكنت ترى فيهم الأصولي الثبت ، والفقيه الورع ، والمحدّث الحافظ ، والمفسّر البارع ، والأديب الظريف ، والعابد الزاهد ، والمرشد المخلص ، والكريم الجوّاد . بل كثيراً ما كنت ترى كل هذه الصفات مجتمعة في واحد من أولئك العلماء الأعلام الذين تفخر بهم مصر ، ويفخر بهم الأزهر .

وإن الانسان ليملكه العجب حقّاً ، وتأخذه الدهشة حين يرى إنتاج هؤلاء العلماء الأفذاذ الذين أثروا في الأزهر وتأثروا به . خذ لذلك مثلاً : هذا تقي الدين القشيري القوصي الشهير بابن دقيق العيد ، توفي سنة ٧٠٢ هـ ، قاضي قضاة الشافعية ، اتفق ابن السبكي في طبقات الشافعية ، والسيوطي في حسن المحاضرة ، وابن العماد في شذرات الذهب اتفقوا على هذه الكلمة في شأنه : لم ير أحداً من أشياخنا يختلف في أن ابن دقيق العيد هو العالم المبعوث على رأس المائة [illegible] وكان [illegible] في [illegible] مالك والشافعي ،

وله فيهما تآليف . فله شرح مختصر ابن الحاجب في فقه المالكية . وله شرح على مختصر التبريزي في فقه الشافعية . وله في الحديث : كتاب الالمام في أحاديث الأحكام . ولقد شرح هذا الكتاب غير أن الشرح لم يكمل . ويقول ابن العماد في كتابه شذرات الذهب إن شرح كتاب الالمام هذا سماه القعيري «الامام» . أما ابن السبكي في طبقات الشافعية فيعد كتاب « الامام » كتاباً آخر غير شرح الالمام . ومما يدعو للوقف النظر أن كل المصادر التي رأيتها تتفق على ان كتاب الالمام هذا في الحديث . وينفرد الزركشي في كتابه البحر المحيط بأن كتاب الالمام هذا في أصول الفقه . ولقد بحثت عن هذا الكتاب فلم أعثر عليه .

وله في الحديث أيضاً شرح على كتاب العمدة لعبد الغني المقدسي . ويقول السيوطي : إن أول إمام حنبلي علمت حلوله بمصر هو عبد الغني المقدسي هذا صاحب العمدة . وله شرح على العنوان في أصول الفقه .

وله في أصول الدين وعلوم الحديث كتاب « الاقتراح » ، وابن تغلب الأدفوي صاحب كتاب الطالع السعيد يعد له أيضاً كتاب « اقتناص السوانح » ويصفه بأنه أتى فيه بأشياء غريبة ، ومباحث عجيبة ، وفوائد كثيرة . وله ديوان خطب . وكان مع كل هذا شاعراً مفلقاً ، وناثراً مجيداً . وهو القائل :

قد جرحتنا يد أيامنا ... وليس غير الله من آسي
فلا ترجو الناس في حاجةٍ ... ليسوا بأهل لسوى الياس
ولا تقس بالعقل أفعالهم ... ما مذهب القوم بمقاس
فاهرب من الخلق الى ربهم ... لا خير في الخلطة بالناس

وكان ابن دقيق العيد هذا معاصراً لأبي العباس المرسي الصوفي المشهور بالاسكندرية وله معه مواقف جميلة . قال له مرة — أي لأبي العباس وكان رأساً في الصوفية — « أنتم إذا رقيتم على أحد تزندقتم [1] . ونحن إذا لم نرق على الناس نزندقنا »

وكان يعطف على الطلاب ويساعدهم حتى مادياً . ويقول : « ضابط ما يطلب مني أن يجوز شرعاً ثم لا أبخل »

---

(١) أي تنبه بأمور تخالف ظاهر الشريعة

ومن أساتذته عز الدين بن عبد السلام الملقب بسلطان العلماء وتلميذه القشيري هذا هو الذي لقبه بهذا اللقب . وعز الدين هذا كان مثلاً في العلم كان مثلاً في الشجاعة وهو أصدق مرآة نرى فيها أخلاق العلماء .

يقول ابن السبكي في طبقاته « إنه وقف في وجه القائم بأمر مصر وقتئذ لما أراد أن يفرض ضريبة على التجار قائلاً : « إذا أحضرت ما عندك وعند حريمك من الحلي وأحضر الأمراء ما عندهم من الحلي الحرام وضربته سكة ونقداً وفرقته ولم يقم بالكفاية لك أن تطلب القرض ، وأما قبل ذلك فلا »

ويقول عنه أيضاً انه لما توفى عز الدين بن عبد السلام سنة ٦٦٠هـ ومرّت جنازته تحت القلعة ، وشاهد الظاهر بيبرس كثرة الخلق الذين معها قال لبعض خواصه : « اليوم استقرّ أمري في الملك لأن هذا الشيخ لو كان أمر الناس فيّ بما أراد لبادروا الى امتثال أمره » .

وكان عز الدين هذا خطيباً لجامع عمرو ولهذه المناسبة أقول : إن المقريزي هذا المؤرخ العظيم كان هو الآخر خطيباً لجامع الحاكم فانظر كيف انقلبت القيم .

ومن علماء مصر الأفاضل الذين أثروا في الأزهر وتأثروا به ذلك العالم البارع الطويل الباع في أصول الفقه وفروعه وفي العربية وغيرها الفقيه المالكي ابن الحاجب — كان أبوه حاجباً عند الأمير عز الدين موسك الصلاحي — صنف في الأصول المختصرة والمنتهى . وفي فقه المالكية المختصر . وله في النحو الكافية ، والوافية ، وفي التصريف الشافية وشرح الكل . وله شرح المفصل ، والأمالي النحوية ، وقصيدة في العروض . ومن أساتذته في القراءات الشاطبي وتوفي بالاسكندرية «سنة ٦٤٦»هـ . وأذكر أنه مدفون بجوار أبي العباس المرسي . ومنهم إمام النحو واللغة ابن هشام الذي قال عنه ابن خلدون « ما زلنا ونحن بالمغرب نسمع أنه ظهر بمصر عالم بالعربية يقال له ابن هشام أنحى من سيبويه » ومن أكابر أساتذة العلم المتحيين الذين عرفتهم مصر ذلك النبت النقية ، الصدوق النبيل ، الحافظ للحديث ، الحجة فيه ، أستاذ الحديث في المؤيد ، البدر العيني صاحب عمدة القاري شرح صحيح البخاري . ويقولون إنه داوم على إقراء الحديث فيه وحده ما يقرب من أربعين سنة خلا ما له من الدروس في بقية مدارس القاهرة ، وتناوب وظيفة حسبة القاهرة هو والمقريزي مدة .

وولاه الملك المؤيد « نظر الأحباس » وهذه توازي وزارة الأوقاف في عصرنا . وكان معاصراً للحافظ بن حجر صاحب كتاب فتح الباري شرح صحيح البخاري ، وكان ابن حجر هذا أصغر من العيني باثني عشرة سنة . ويروي المقريزي أنه كان بينهما من المنافسة ما يكون بين المتعاصرين. فلما فوض إلى العيني تدريس الحديث بالمؤيدية سادفي أن مالت مئذنة الجامع المؤيدي على البرج الشمالي وكادت تسقط فهدمت وبنيت من جديد . فقال الحافظ بن حجر في ذلك .

لجامع مولانا المؤيد رونق منارته بالحسن تزهو وبالزين
تقول وقد مالت عليهم تمهلوا فليس على حسني أضر من العيني

فتحدث الناس أنه قصد التورية بالعيني .

ويروي المقريزي أن العيني ردّ عليه بهذين البيتين وهما من نظمه وغيره يقول إنهما لبدر الدين العتابي .

منارة كعروس الحسن إذ جليت وهدمها بقضاء الله والقدر
قالوا أصيبت بعين قلت ذا غلط ما آفة الهدم إلاّ خشة الحجر

وللعيني مؤلفات كثيرة أجلها عمدة القاري هذا الذي تقدم ذكره . ويقولون إنه ابتدأ به سنة ٨٢١ وأتمه سنة ٨٤٧ هـ بعد فراغ ابن حجر من شرحه فتح الباري بخمس سنوات. وله أيضاً « نخب الأفكار في تنقيح مباني الأخبار » في شرح معاني الآثار للامام أبي جعفر الطحاوي في عشر مجلدات . وله «معاني الأخيار في رجال معاني الآثار » في مجلدين . ومنها « البناية في شرح الهداية » للامام المرغيناني في عشر مجلدات . ومنها « الدرر الزاهرة في شرح البحار الزاخرة » لشيخه الزهاوي في المذاهب الأربعة في مجلدين . ومنها «عقد الجمان في تاريخ الزمان» في خمس وعشرين مجلداً . وعد مؤلفاته أمرٌ يطول. فليرجع اليها في مقدمة كتابه عمدة القاري.

ومن رجالات مصر أعيان العلماء جلال الدين السيوطي وقد ترجم لنفسه في كتابه حسن المحاضرة. وأذكر باختصار هذه الترجمة فسنرى فيها شيئاً كثيراً عن نظام البحث والدرس

والاشراف العلمي على الطلبه وأنواع العلوم التي كانت تدرس في ذلك الوقت، ورأيهم في بعض العلوم . وأخيراً تلك الصلة الروحية القوية بين الطالب والاستاذ.

قال : كان مولدي بعد المغرب ليلة الأحد مستهل رجب سنة ٨٤٩هـ وحملت في حياة أبي الى الشيخ محمد المجذوب رجل كان من كبار الاولياء بجوار المشهد النفيسي . ونشأت يتيماً فحفظت القرآن ولي دون ثمان سنين . ثم حفظت العمدة . ومنهاج الفقه ، الاصول وألفية ابن مالك . وشرعت في الاشتغال بالعلم في مستهل سنة ٦٤ هـ . وأجزت بتدريس العربية في مستهل سنة ٦٦ هـ وقد ألفت في هذه السنة فكان أول شيء ألفته شرح الاستعاذة والبسملة. وأوقفت عليه شيخنا شيخ الاسلام علم الدين البلقيني فكتب عليه تقريظاً ولازمته في الفقه إلى أن مات . فلازمت ولده فقرأت عليه وأجازني بالتدريس والافتاء من سنة ٧٦ هـ . وحضر تصديري فلما توفي سنة ٧٨ هـ لزمت شيخ الاسلام شرف الدين المناوي فقرأت عليه قطعة من المنهاج .

ولزمت في الحديث والعربية شيخنا الامام العلامة تقي الدين الشبلي الحنفي فواظبته أربع سنين، وكتب لي تقريظاً على شرح ألفية ابن مالك ، وعلى جمع الجوامع في العربية تأليفي . وشهد لي غير مرة بالتقدم في العلوم بلسانه وبنانه ولم أنفك عن الشيخ الى أن مات . ولزمت شيخنا العلامة محي الدين الكافيجي أربع عشرة سنة فأخذت عليه الفنون من التفسير والاصول والعربية والمعاني وغير ذلك وكتب لي إجازة عظيمة . . .

وشرعت في التأليف سنة ٨٦٦ هـ . وبلغت مؤلفاتي الى الآن ٣٠٠ كتاب سوى ما رجعت عنه . وهنا يخبرنا أنه لما حجَّ شرب من ماء زمزم لأمور منها : أن يصل في الفقه إلى رتبة الشيخ سراج الدين البلقيني ، وفي الحديث إلى رتبة الحافظ بن حجر . ويقول أفتيت من مستهل سنة ٧١ هـ . . .

ورزقت التبحر في سبعة علوم : التفسير ، والحديث ، والفقه ، والنحو ، والمعاني ، والبيان ، والبديع ... ودون هذه السبعة في المعرفة أصول الفقه ، والجدل ، والتصريف ، ودونها الانشاء والترسل ، والفرائض . ودونها القراءات ولم آخذها عن شيخ ودونها الطب . وأما علم الحساب فهو أعسر شيء عليَّ وأبعده من ذهني وإذا نظرت في مسألة تتعلق

به فكأنما أحاول جبلاً أحمله . . . وقد كنت في بداية الطلب قرأت شيئاً في علم المنطق ثم ألقى الله كراهته في قلبي .

وصحت أن ابن الصلاح أفتى بتحريمه فتركته لذلك . وأما مشايخي في الرواية سماعاً وإجازة فكثير أوردتهم في المعجم الذي جمعتهم فيه وعدتهم نحو ١٥٠ شيخاً . ولم أكثر من سماع الرواية لاشتغالي بما هو أهم وهو قراءة الدراية . وهنا ذكر أسماء مصنفاته فعدّ في « التفسير وتعلقاته ، والقراءة » ٢٢ كتاباً منها : الاتقان في علوم القرآن ؛ والدر المنثور في التفسير بالمأثور ؛ وباب المنقول في أسباب النزول ؛ ومفحمات الاقران في مبهمات القرآن ، والمهذب فيما وقع في القرآن من المعرب . والكلام على أول الفتح وهو تصدير ألقاه لما باشر التدريس بجامع شيخون بحضرة شيخه البلقيني .

وهذا التصدير قد عثر عليه مخطوطاً فضيلة مولانا الاستاذ الاكبر شيخ الجامع الازهر الشيخ مصطفى عبد الرازق في دار الكتب الازهرية تحت رقم ٢٠٤ وورد في هذه المجموعة التي تحتوي على هذا التصدير أنها بخط المؤلف . وكان هذا التصدير موضوع الدرس الذي ألقاه فضيلته أمام حضرتي صاحبي الجلالة مولانا الملك فاروق الأول وجلالة الملك عبد العزيز آل سعود قبل صلاة الجمعة بالأزهر الشريف يوم ١١ يناير سنة ١٩٤٦ .

وهنا ننشر هذا التصدير فانه على صغر حجمه كما قال عنه فضيلة مولانا الأستاذ الاكبر « يفيد الباحثين في تطور الدراسات الاسلامية وأساليبها . وفي الطرق التي كانت تعتمد عليها مدارس المسلمين في إجازة طلابها وتخريجهم .

تصدير السيوطي (*)

وهذا هو نص التصدير الذي ألقاه الجلال السيوطي مذيلاً بتعليقات حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر :

تصدير مبارك ألقيته يوم أجلست للتدريس بجامع شيخو رحمه الله ، بحضرة شيخنا قاضي القضاة شيخ الاسلام علم الدين البُلقيني (١) وجماعة من القضاة والأفاضل وذلك يوم الثلاثاء تاسع ذي القعدة سنة ٨٦٧هـ ،(٢) وقد مضى من عمري ثمان عشرة سنة وأربعة أشهر وثمانية أيام (٣) .

الحمد لله طالعت على هذا التصدير الكشاف (٤) وتفسير الامام الرازي (٥) وتفسير الامام ابن العربي (٦) والبحر لأبي حيان (٧) وأسباب النزول للواحدي (٨) وتفسير

(*) عن المخطوط رقم ٢٠٤ فنون المجاميع بدار الكتب الأزهرية ، والتصدير يقع في ثمانية وعشرين سطراً من ظهر الورقة السابقة للاخيرة ، وأربعة وعشرين سطراً في وجه الورقة الاخيرة ، وهذا المخطوط يحتوي على مؤلفات أخرى للسيوطي ، وقد كتب عليه أنه بخط الجلال السيوطي نفسه .

(١) هو الامام علم الدين صالح بن شيخ الاسلام سراج الدين عمر البلقيني ، ولد سنة ٧٩١ هـ ، تولى مشيخة الخشابية بجامع عمرو بن العاص ، وهي المشهورة بزاوية الامام الشافعي ، وتولى القضاء الاكبر في سنة ٨٢٦ هـ ألف تفسير القرآن ، قرأ السيوطي عليه الفقه وأجازه بالتدريس ، توفي في الخامس من رجب سنة ٨٦٨ هـ ، ١٢ يوافق ٢٧ يوليه سنة ١٤٦٣ .

(٢) لان السيوطي ولد بالقاهرة ليلة مستهل رجب سنة ٨٤٩هـ الموافق ٣ اكتوبر سنة ١٤٤٥ .

(٤) هو التفسير القيم الذي ألفه الزمخشري جار الله أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد المتوفى بجرجانية خوارزم سنة ٥٣٨ .

(٥) المقصود هو التفسير الكبير المسمى « مفاتيح الغيب » . والامام الرازي هو فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر الرازي المتكلم الاشعري المشهور ، ويعرف أيضاً بابن الخطيب ، وهو شافعي في الفقه ، ولد سنة ٥٤٤ ، وقيل سنة ٥٤٣ وتوفي يوم عيد الفطر سنة ٦٠٦ هـ ولم يتم تفسيره فأتمه غيره بعد وفاته .

(٦) هو الشيخ محي الدين محمد بن علي الطائي الاندلسي الحاتمي المعروف بالشيخ الاكبر المتوفى سنة ٦٣٨ وله تفسير كبير على طريقة أهل التصوف اختصره في تجلية أسفار .

(٧) البحر المحيط في تفسير القرآن لابي حيان محمد بن يوسف الغرناطي الجياني أثير الدين ، ولد في آخر شوال سنة ٦٥٤ هـ وسمع بالاندلس وأوربية والاسكندرية ومصر والحجاز ، وهو شافعي نزيل في القاهرة ، توفي في ٢٨ صفر سنة ٧٤٥ هـ .

(٨) هو أسباب نزول القرآن لابي الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري المتوفى سنة ٤٦٨ هـ في جمادى الآخرة وكان استاذ عصره في النحو والتفسير .

السجاوندي [١] وينبوع الحياة لابن فتحون [٢] ومصباح الجوهري [٣] .

والخطبة الى آخر الصلاة من كلام الامام الشافعي رضي الله عنه [٤] .

بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ، والحمد لله الذي لا يؤدَّى شكرُ نعمة من نعمه إلاّ بنعمة منه توجب على مؤدِّى ماضي نعمه بأدائها نعمةً حادثة يجب عليه شكره بها ، ولا يبلغ الواصفون كنه عظمته ، الذي هو كما وصف نفسه وفوق ما يصفه به خلقه . أحمده حمداً كما ينبغي لكرم وجهه وعزّ جلاله ، وأستعينه استعانة من لا حول له ولا قوة إلاّ به . وأستهديه بهداه الذي لا يضل من أنعم به عليه . وأستغفره لما أزلفتُ وأخرت استغفار من يقرّ بعبوديته ويعلم أنه لا يغفر ذنبه ولا ينجيه منه إلاّ هو . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله[٥] . صلى الله عليه وعلى آله كما صلى على ابراهيم وآل ابراهيم إنه حميد مجيد ، ورضي الله عن السادة الصحابة أجمعين ، وعن إمامنا الامام الشافعي المطلبي وسائر الأئمة ، وعن سيدنا ومولانا شيخ الاسلام ووالده شيخ الاسلام وسائر مشايخنا والسادة الحاضرين وجميع المسلمين [٦] .

أما بعد — فقد قال الله تعالى « إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ، ليغفرَ لك الله ما تقدَّم من ذنبكَ وما تأخر ، ويتمَّ نعمته عليك ، ويهديَك صراطاً مستقيماً ، وينصرَكَ الله نصراً عزيزاً » [٧] .

الكلام على هذه الآية من جهات : الأولى سبب النزول ومكانه وزمنه . الثانية علم القراءة . الثالثة علم الإعراب . الرابعة علم المعاني . الخامسة علم التفسير [٨] .

---

(١) هو محمد بن طيفور أبو عبد الله السجاوندي الغزنوي ، توفي في حدود سنة ٥٦٠ هـ .

(٢) هو حجة الدين محمد بن عبد الله بن محمد بن فتحون المكي ، توفي بمكة سنة ٦٥٠ هـ .

(٣) « الصحاح في اللغة » للجوهري وهو أبو نصر اسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي من أئمة اللغة توفي بنيسابور في حدود سنة ٤٠٠ هـ .

(٤) خطبة « الرسالة » للامام الشافعي ، ص ٧ — ٨ من تحرير الشيخ احمد محمد شاكر

(٥) الى هنا ينتهي كلام الشافعي في خطبة « الرسالة »

(٦) هنا جاء في الأصل : قوله سيدنا ومولانا ، أقول هو شيخ تقي الدين البلقيني ابن الشيخ سراج الدين

(٧) سورة ٤٨ ، مدنية نزلت في الطريق عند الانصراف من الحديبية ، الآيات ١ — ٣

(٨) هنا جاء في الأصل « الكلام على هذه الآية من جهات : الأولى سبب النزول الثانية الى آخره »

أقول: قدّمت أولاً الكلام على النزول وما يتعلق به ، ومناسبةُ تقديمه ظاهرة ، وثنّيت باللغة وقدّمتها على الاعراب ، لأنها تبين المعنى ، والاعراب فرعه ومتوقف على معرفته ، وثلثت بالاعراب وقدمته على المعاني الذي هو ثمرة الاعراب ، ثم تلاه المعاني ، ولما انتهيت من الأدوات ذكرت المقصود بالذات من الآية وهو التفسير وبيان المراد ، ثم ختمت بالنهاية وهو علم التصوف . وهذا ترتيب حسن لطيف .

***

أما سبب النزول وما يتعلق به فقال الامام أبو الحسن الواحدي رحمه الله : روي عن ابن عباس انه لما نزل قوله تعالى : « وما أدري ما يفعل بي ولا بكم »[1] ، قال المشركون : كيف تدخل في دينك وأنت لا تدري ما يُفعل بك وبمن اتبعك ؟ فنزل قوله تعالى : إنا فتحنا لك إلى آخره . قوله روي عن ابن عباس الخ أقول قوله ابن عباس هذا حكمه حكم المرفوع . وروي أنه لما نزل : ليغفر لك الله ، قال له أصحابه : هنيئاً لك يا رسول الله الجنة لك ! فما لنا ؟ فنزل : ليُدخل المؤمنين والمؤمنات جنات الى آخره[2] ، ولما نزل : ويتم نعمته عليك ، قالوا كذلك فنزل : « اليوم أكملت لكم دينكم »[3] ، ولما نزل : وينصرك الله نصراً عزيزاً ، قالوا كذلك فنزل : « وكان حقّاً علينا نصرُ المؤمنين »[4] .

وروي أن قوله تعالى : إنا فتحنا لك إلى آخره نزل بين مكة والمدينة في شأن الحديبية. قال أنس[5] ، رضي الله تعالى عنه : لما رجعنا من الحديبية وقد حيل بيننا وبين نُسُكنا ونحن بالحزن والبكاء ، أنزل الله تعالى : إنا فتحنا لك إلى آخره ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد أنزل عليّ آية هي أحب إليّ من الدنيا وما فيها . وفي رواية : مما طلعت

(١) سورة ٤٦ آية ٩ (مكية) .
(٢) سورة ٤٨ آية ٥ (مدنية) .
(٣) سورة ٥ آية ٣ (نزلت بعرفات في حجة الوداع .
(٤) سورة ٣٠ آية ٤٧ (مكية) .
(٥) الامام أبو حمزة أنس بن مالك بن النضر الانصاري المدني . لازم رسول الله ثم هاجر الى أن مات وكان آخر الصحابة موتاً . واختلف في سنة وفاته ، قيل : سنة ٩٠ هـ ، وقيل : سنة ٩١ هـ ، وقيل : سنة ٩٢ هـ ، وقيل : سنة ٩٣ هـ .

عليه الشمس . وفي الصحيح انه نزل ليلاً [١] .

وأما ما يتعلق بالآية من جهة اللغة، فقال الامام أبو النصر الجوهري في صحاحه : الفتح يطلق على النصر وعلى الحكم ، ومنه : « افتح بيننا وبين قومنا بالحق [٢] » ، وعلى الماء يجري من عين أو غيرها . والمبين من أبان الشيء إذا أوضحه ، ومنه بان أي اتضح ، وأستبان أي ظهر، واستبنته أي عرفته ، والتبيين الايضاح والوضوح أيضاً . والبيان الفصاحة وما به يتبين الشيء من دلالة وغيرها . ومبين أيضاً اسم ماء ، قال الشاعر يا ريّها اليوم على صبين ، أي يا ريّ ناقتي على هذا الماء . والمغفرة من الغفر وهو الستر والتغطية ، ومنه غفرت المتاع جعلته في الوعاء . والمِغْفَر زَرَد ينسج من الدروع على قدر الرأس يلبس تحت القلنسوة ، ويقال من هذه المادة : استغفر الله لذنبه ومن ذنبه وذنبه ، والفعل غفر يغفر، وجاء في لغة غفير يغفر ، والمصدر مغفرة وغفراناً وغفراً ، وجاء في لغة غفَراً . والذنب الجرم ، والفعل منه أذنب . والنعمة اليد والصنيعة ، وكذلك النعمى والنعماء والنعيم . ويقال : فلان واسع النعمة أي واسع المال . والهدى يطلق على أمور : أحدها خلق الاهتداء، ومنه : « انك لا تهدي من أحببت » [٣] : الثاني الدلالة بلطف ، ومنه : « وإنك لتهدي الى صراط مستقيم » [٤] : الثالث التقدم ، ومنه هوادي الخيل لتقدمها . الرابع التبيين ، ومنه : وأما ثمود فهديناهم » ، كذا قيل ، ويظهر لي أن هذا متحد مع الثاني . الخامس الالهام ، ومنه : « أعطى كلَّ شيء خَلْقَه ثم هدى » [٥] أي ألهم لمصالحه . السادس الدعاء ، ومنه : « ولكل قوم هاد [٦] » ، أي داعٍ . والصراط هو الطريق الواضح ، والعماد لغة قريش ، وعامة العرب يجعلونها سيناً ، وكعب يجعلونها زايا ، وأهل الحجاز يؤنثونه كالطريق والسبيل والزقاق والسوق، وبنو تميم يذكّرون هذا كله . وجمعه صُرُط ككتاب وكتب ، والمستقيم

(١) الحديث على هذا النحو أقرب الى رواية عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ونصه كما جاء في صحيح البخاري : « لقد نزلت علي الليلة سورة هي أحب إلي مما طلعت عليه الشمس » . وفي غيره من كتب الحديث : « لقد نزلت علي آنفاً سورة هي أحب إلي من الدنيا وما فيها » . وأما على نحو ما رواه أنس فالاغلب هو : « لقد نزلت علي الليلة آية أحب إلي مما على الأرض ... (٢) سورة ٧ آية ٨٩ (مكية) .

(٣) سورة ٢٨ آية ٥٦ (مكية) ... سورة ٤٢ آية ٥٢ (مكية) .

(٥) سورة ٢٠ آية ٥٠ مكية) ... (٦) سورة ١٣ آية ٧ (مدنية) .

ضد المعوج . والنصر مصدر نصره على عدوه ينصره والاسم منه النُّصْرة . ويقال نصر الغيث الأرض أي غاثها . ونصرت الأرض أي مطرت . والعزيز هو الغالب ، ويطلق على المحتاج إليه القليل الوجود .

وأما ما يتعلق بها من جهة الإعراب فقوله : ليغفر الله لك . اختلف في اللام هنا ، فقال صاحب « الكشاف » رحمه الله : للتعليل . قال : فإن قلت : كيف جعل فتح مكة علة للمغفرة ؟ قلت : لم يجعل علة للمغفرة ولكن لاجتماع ما عدّد من الأمور الأربعة وهي المغفرة وإتمام النعمة وهداية الصراط المستقيم والنصر العزيز . وأجاب بجواب آخر وهو أنه يجوز أن يكون فتح مكة ، من حيث إنه جهاد للعدو ، سبباً للغفران والثواب ، قوله : وأجاب الخ ، أقول: هذا الجواب على تسليم أنه جعل مكة[1] للمغفرة . وأجاب الامام فخر الدين[2] بجوابين غير هذين . وقيل اللام هنا للعاقبة ، والمراد أن الله فتح لك لكي يجعل لك علامة لغفرانه لك ، وقيل هي لام القسم وكسرت لحذف النون من الفعل لشبهها بلام كي ، ورد هذا الوجه بأن لام القسم لا تكسر وينصب بها ، ولو جاز هذا لجاز ليقومَ زيد في معنى ليقومنّ زيد . قال أبو حيان في « البحر » مجيباً عن هذا الرد : أما الكسر فقد علل بأنه لشبهه بلام كي ، وأما النصب فله أن يقول ليس هذا نصباً لكنها الحركة التي تكون مع وجود النون بقيت بعد حذفها دلالة على الحذف . قال : وبعد ، فهذا القول ليس بشيء ، إذ لا يحفظ من كلامهم والله ليقوم ولا بالله ليخرج زيد بكسر اللام وحذف النون وبقاء الفعل مفتوحاً .

وأما ما يتعلق بها من جهة المعاني، ففي قوله : « إنّا فتحنا » ، وقوله : « ليغفر لك الله » التفات من التكلم الى الغيبة ، ونكتته أنه لما كان الغفران وإتمام النعمة والهداية والنصر يشترك في اطلاقها الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، وغيره بقوله : « ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء[3] » ، وقوله : « يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم[4] » ، وقوله :

---

(١) هكذا في الاصل ولعل الجواب « جعل فتح مكة » .

(٢) المقصود فخر الدين محمد بن عمر الرازي صاحب التفسير الكبير المسمى « مفاتيح الغيب » .

(٣) سورة ٤ آية ٤٨ (مدنية) (٤) سورة ٢ آية ٤٠ و ٤٧ و ١٢٢ وهي جميعاً مدنية)

« يهدي من يشاء[١] » ، وقوله : « إنهم لهم المنصورون[٢] » ، ولم يكن الفتح لأحد إلاّ للرسول ، أسنده تعالى الى نون العظمة تفخيماً لشأنه ، وأسند تلك الأشياء الأربعة الى الظاهر واشتركت الخمسة في الخطاب له ، صلى الله عليه وسلم ، تأنيساً له وتعظيماً لشأنه ، ولم يؤت بالاسم الظاهر ، لأن في الإقبال على المخاطب ما لا يكون في الاسم الظاهر . وفي قوله : « نصراً عزيزاً » ، إسناد العزة الى النصر وهو مجاز ، فالعزيز حقيقة هو المنصور ، صلى الله عليه وسلم ، وقيل فيه مجاز الحذف ، والتقدير « عزيزاً صاحبه » . وأعيد لفظ الله في : « وينصرك الله » لمّا بعدها عطف عليه وليكون المبدأ مسنداً الى الاسم الظاهر والمنتهي كذلك . قوله : التفات الخ ، أقول : لم يذكر ذلك في « الكشاف » وأشار اليه أبو حيان في « البحر » تلويحاً لا تصريحاً ، قوله : وقيل فيه مجاز الحذف ، أقول : هذا من تعبيري وتصريفي .

وأما ما يتعلق بها من جهة التفسير ، قوله « إنّا فتحنا » في المراد بالفتح هنا أقوال : أحدها فتح مكة واختاره الفخر[٣] الرازي من الجميع وأبو حيان ، والثاني عام الحديبية عند انفكاكه منها . والثالث قاله مجاهد[٤] فتح خيبر وفي بعض الآي ما يدل عليه . والرابع قال الضحاك[٥] المراد فتح الله له بالاسلام والنبوّة والدعوة والحجة[٦] والسيف ، والفتح[٧] أبين منه وأعظم وهو رأس الفتوح كلها ، إذ لا فتح من فتوح الاسلام إلاّ وهو عنه ومشتق منه . الخامس قال غيره : المراد نصر الله تعالى على أهل مكة أنك تدخلها أنت وأصحابك من قابل لتطوفوا بالبيت . قوله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، قال ابن عباس : ما تقدم قبل النبوة وما

---

(١) مكرر في أكثر من آية . مثلا ٢ : ١٤٢ ، ٢١٣ ، ٢٧٢ (وهي جميعاً مدنية)

(٢) سورة ٣٧ آية ١٧٢ (مكية)

(٣) في الاصل « أبو بكر » وهو لا شك سهو ، وكنية الرازي المفسر صاحب مفاتيح الغيب هي أبو عبد الله أو أبو الفضل وهو بلقبه أعرف .

(٤) مجاهد بن جبر المكي الامام المفسر الحافظ ، مات سنة ١٠٣ هـ بمكة عن ثلاث وثمانين سنة .

(٥) الضحاك بن مخلد الشيباني البصري الحافظ ، مات بالبصرة في الرابع عشر من ذي الحجة سنة ٢١٢ هـ عن تسعين سنة وأشهر (٦) لعله « الدعوة بالحجة » كما ورد في تفسير أبي السعود المطبوع بهامش تفسير الرازي . (٧) لعله « ولا فتح » كما جاء في تفسير أبي السعود المذكور .

تأخر بعدها . وقال غيره : ما وقع وما لم يقع على طريق الوعد بأنه مغفور له . وقال سفيان: ما تأخر : هو ما لم يعلمه . وقال آخر : المتقدم المتأخر صحا ما كان قبل النبوة . وقال آخر : تأكيد للمبالغة كما تقول : أحبك من عرفك ومن لم يعرفك . وقال آخر : ما تقدم من ذنبك يعني من ذنب أبيك آدم وحواء وما تأخر ذنوب أمتك . وقال آخر : المعنى لو كان لك ذنب قديم أو حديث لغفرناه . قوله « ويتم نعمته عليك » قيل بالنبوة والحكمة ، وقيل بفتح مكة والطائف وخيبر ، وقيل بخضوع من استكبر ، والصحيح بدخول الجنة . قوله « ويهديك » المراد يثبتك على الهدى كما في قوله « يأيها النبي اتق الله » (١) « يأيها الذين آمنوا آمنوا » وأمثال ذلك . قوله « صراطاً مستقيماً » المراد به هنا الاسلام .

وأما من جهة علم التصوف فلم يرد الينا ما كتبه السيوطي في تصديره عنه .

***

وهذا التصدير يعطينا صورة واضحة عن طرق البحث والدرس وما كان يعتمد عليه في اجازة الطلاب وتخريجهم في ذلك العصر . وبعد أن عدّ السيوطي كتبه في فن التفسير أخذ يعدها في « فن الحديث وتعلقاته » وفي « فن الفقه وتعلقاته » . وفي « فن العربية وتعلقاته » وفي فن الاصول ، والبيان ، والتصوف ، وأخيراً في التاريخ والأدب .

وعد هذه المؤلفات هنا أمر يطول شرحه فليرجع اليها في كتابه حسن المحاضرة ج ١ ص ١٥٧، ١٥٨، ١٥٩، ١٦٠، ١٦١ .

وكما عرفت مصر هؤلاء في ظل الأزهر القديم عرفت كثيرين غيرهم في مختلف الفنون والعلوم فعرفت مثلاً من أئمة القراءات أبا القاسم الشاطبي صاحب الشاطبية ذلك المقرىء الضرير أستاذ القراءات في المدرسة الفاضلية الذي كان رأساً في فنه منقطع القرين توفي سنة ٥٩٠ هـ وعرفت في فقه الحنفية «السروجي» صاحب شرح الهداية توفي سنة ٧٠١ هـ

وعرفت في هذه الناحية أيضاً ابن التركماني وقد شرح الهداية كما شرح الجامع الصغير وألقاه دروساً بالمنصورية توفي سنة ٧٤٤ هـ .

كما عرفت في التاريخ المقريزي صاحب الخطط وغيرها وشمس الدين السخاوي صاحب كتاب الضوء اللامع لأهل القرن التاسع في ست مجلدات وهو من أوسع المصادر التي عرفنا

(١) سورة ٣٣ آية ١ (مدنية)

الباحثون في تاريخ القرون الوسطى ، استدرك فيه على شيخه ابن حجر العسقلاني ما فاته من أعيان المائة الثامنة وبسط تاريخ أهل القرن من رجال ونساء ممن توفوا في العصر المذكور أو تأخر الى القرن العاشر . وله أيضاً الجواهر والدرر في ترجمة الشيخ ابن حجر . وفتح المغيث في شرح ألفية الحديث . والمقاصد الحسنة في الأحاديث الجارية على الألسنة . ويقول ابن العهد في كتابه شذرات الذهب إنه أجمع وأتقن من كتاب السيوطي المسمى بالجواهر المنتثرة في الاحاديث المشتهرة . وله غير ذلك توفي سنة ٩٠٢ هـ ويكفي ذلك عرضاً وتمثيلاً لبيان انتاج من عاشوا بمصر في ظل الأزهر في ذلك الزمن السحيق وهو انتاج قيم عظيم في بابه ليس في ذلك من شك .

نظام التعليم في الازهر القديم

وكان النظام التعليمي للازهر في ذلك الوقت يتلخص فيما يلي : ـ

١ — كان هناك أستاذ أكبر للمادة يشرف على من دونه . وهؤلاء كانوا يحرصون على ملازمة أستاذهم حتى المهات وكل أمنيتهم أن يصلوا الى مثل مرتبته في الفن . فالسيوطي مثلاً يحدثنا عن نفسه يقول : « لما حججت شربت من ماء زمزم لامور منها : أن أصل في الفقه الى رتبة الشيخ سراج الدين البلقيني . وفي الحديث الى رتبة الحافظ بن حجر » .

ويقول : كان أول شيء ألفته « شرح الاستعاذة والبسملة » وأوقفت عليه شيخنا شيخ الاسلام علم الدين البلقيني فكتب عليه تقريظاً ولازمته في الفقه إلى أن مات .

٢ - كان الطالب يصح أن يجاز في مادة ويرجأ في الأخرى . فهو في مادة أستاذ معلم وفي أخرى طالب تحت الاجازة .

٣ — كانت الشهادات تعطى من الاساتذة وتسمى إجازة . وكان الطالب إذا آنس من نفسه القوة في العلم والقدرة على التدريس والافتاء طلب من شيخه أن يجيزه . وسنشير بعد قليل صورة إجازة من هذه الاجازات .

٤ — كان للطالب منتهى الحرية في اختيار المادة ، والاستاذ ، وله الحرية أيضاً في الغياب والحضور .

٥ — كان لكل كتاب قارىء غالباً . فمثلا نرى البدر العيني صاحب عمدة القاري شرح صحيح البخاري يسمع صحيح البخاري على أستاذه العراقي بقراءة الشهاب احمد بن منصور الأشموني . ويسمع الالمام في أحاديث الأحكام لابن دقيق العيد بقراءة غيره . ويسمع محاسن الاصطلاح وتضمين مقدمة ابن الصلاح على أستاذه سراج الدين البلقيني بقراءة السراج قاري الهداية وهكذا .

وكان الأستاذ قبل أن يلقي درسه يتوجه الى الله يستلهمه العون مفتتحاً درسه بسم الله الرحمن الرحيم ثم يحمد الله ويصلي على نبيه . ويرشد الى المصادر التي رجع اليها في درسه ويسند كل رأي . أو اعتراض أو جواب لقائله . وكان تلقين الطالب المعلومات يأتي إما عن طريق الرواية أو عن طريق الدراية .

وكانت هناك صلة روحية قوية بين الأستاذ والطالب ، مربوطة برباط العلم الخالص لوجه الله . بل قل كانت هناك بنوّة في العلم . فالاستاذ والد والطلاب أبناء والكل يكوّنون أسرة علمية كأسرة النسب بل هي أقرب ، لأن أساسها المودة التي لا تعرف العقوق . ومظاهر هذه الصلة الروحية كانت تتجلى من ناحية الاستاذ في عطفه على الطالب ، فهو للطالب في العلم أستاذ ، وفي الخير موجه ، وفي النافع مرشد ، وفي البحوث مشرف مخلص . كنت ترى الاستاذ يسأل عن ابنه في العلم إذا غاب ، ويعوده إذا مرض ، ويعنى به في جميع شؤونه حتى ماديًّا .

روى ابن ثعلب الادفوي الشافعي المتوفى سنة ٧٤٨ هـ في كتابه الطالع السعيد ، أن ابن دقيق العيد كان يصحب قاضي القضاة السروجي الحنفي . فكان إذا سافر الى القاهرة يذكر له كل سفرة جماعة من الطلبة المعروفين بالخير ويحضر سجلات لهم من غير أن يعرفوا . وكما كان هناك العطف الخالص من ناحية الاستاذ ، كان هناك الاحترام والتوقير والاكبار والاجلال من ناحية الطالب ، ويجمع الكل التعاون في طلب الحقيقة ونشر العلم .

قلنا في تقدّم إن الشهادة كانت تعطى للطالب من الاستاذ وتسمى اجازة . وها هي ذي صورة اجازة من ابن دقيق العيد الى تلميذه شمس الدين بن المفضل بالفتوى والتدريس .

ابتدأها بعد سؤال شمس الدين له بالاجازة قال :

«استخير الله تعالى في الايراد والاصدار ، واعتصم به من آفتي التقصير والاكثار ، واستغفر الله فيما فرط في الجهر والاسرار ، وأقول : إني ذاكرت فلاناً زينه الله بالتقوى وحرسه في السر والنجوى ، في فنون من العلوم الشرعية ، العقلية ، والنقلية ، فألفيته يرجع إلى معقول صحيح ، ومنقول صريح ، وإطلاع على المشكلات ، وإضطلاع بحل المعضلات ، لاسيما في فقه المذهب ، فانه أصبح فيه كالعلم المذهب . وقام بعلم العربية ، والتفسير ، فصار فيها الفاضل النحرير ، وقد أجبته إلى ما التمس ، وإن كان غنيًّا بما حصل واقتبس ، فليدرس مذهب الامام الشافعي رضي الله عنه لطالبيه . وليجب المستفتي بقلمه وفيه ، ثقة بفضله الباهر ، وورعه الوافر ، وفطرته الوقادة ، وألمعيته المنقادة ، والله تعالى ينفعنا وإياه بما علمناه ، ويرفعنا بذلك لديه فما المقصود سواه» .

وكان الطالب يعنى بأمر آبائه في العلم فنرى مثلاً . العيني شارح البخاري المتقدم ذكره يؤلف كتاباً يستوفي فيه تراجم شيوخه يسميه « معجم الشيوخ » ، ونرى الامام السيوطي يترجم لمائة وخمسين من شيوخه في معجم كبير يسميه « حاطب ليل وجارف سيل » . ونرى الامام النووي في كتابه « تهذيب الأسماء واللغات » يرسم سلسلة لمن تفقه عليهم مبتدئاً بأستاذه حتى الامام الشافعي . ثم يمضي إلى رسول الله صلوات الله عليه فيقول : « فأما أنا فأخذت الفقه قراءة وتصحيحاً وسماعاً وشرحاً وتعليقاً عن جماعات أولهم ... ثم يمضي في السلسلة إلى أن يصل الى رسول الله.

ونراه في مقدمة هذه السلسلة يقول : « وهذا — أي العناية بأمر سلسلة التفقه — من المطلوبات المهمات ، والنفائس الجليلات ، التي ينبغي للمتفقه والفقيه معرفتها وتقييد به جهاتها ، فإن شيوخه في العلم آباء في الدين ، وصلة بينه وبين رب العالمين . وكيف لا يتسع جهل الانسان بهم ، وهم الوصلة بينه وبين ربه الكريم الوهاب ، مع أنه مأمور بالدعاء لهم ، وبرهم وذكر مآثرهم ، والثناء عليهم ، وشكرهم » .

ونرى النووي هذا أيضاً في مقدمة كتابه « المجموع » يعقد فصلاً في النهي الأكيد والوعيد الشديد لمن يؤذي أو ينتقص الفقهاء والمتفقهين والحث على إكرامهم وتعظيم حرماتهم ثم يعقد بعد ذلك فصلاً آخر في آداب المعلم والمتعلم .

وهو من أحسن ما خطت يد إنسان في بابه ؛ وهو فيه دستور عظيم، أحيل القارىء عليه ولولا خوف التطويل لنقلته إليه .

سارت الدراسات الاسلامية بمصر في ظل الأزهر فأنبتت نباتاً حسناً الى أن غشيته قاشية من سلطان ظاهرتين اثنتين كانتا فأوعزتا الى أذهان الكثيرين معق أضر بهذه الدراسات ضرراً بليغاً .

تحريم الاشتغال بالمنطق

والنهي عن التأليف

أما الظاهرة الاولى : وهي تحريم الاشتغال بالمنطق فلقد تأثرت بها مصر بعد أن أفتى أبو عمرو بن الصلاح في الشام بتحريم الاشتغال بالمنطق تعلماً وتعليماً — توفى ابن الصلاح هذا « سنة ٦٤٣هـ » — أما أن مصر تأثرت بها فالسيوطي في كتابه حسن المحاضرة — ج ١ ص ١٥٧ — يقول : « وقد كنت في مبادىء الطلب قرأت شيئاً في علم المنطق ثم ألقى الله كراهته في قلبي وسمعت أن ابن الصلاح أفتى بتحريمه فتركته لذلك »

ولم يكتف السيوطي بعد أن سمع هذه الفتوى بترك الاشتغال بالمنطق ، بل ألف كتاباً في تحريم الاشتغال به سماه « القول المشرق في تحريم الاشتغال بالمنطق» . وهذا الكتاب عده السيوطي مع كتبه التي ذكر عدتها في كتابه حسن المحاضرة .

ثم بعد ذلك ألف السيوطي نفسه كتاباً آخر نهى فيه عن علم الكلام بجوار النهي عن المنطق سماه « صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام » وهذا الكتاب مخطوط موجود بمكتبة الازهر تحت رقم ٢٠٤ ضمن مجموعة يقال إنها بخط السيوطي نفسه . وهذه المجموعة عثر عليها فضيلة الاستاذ الاكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق وفيها التصدير المتقدم له عن سورة الفتح ومقدمة هذا الكتاب — « صون المنطق والكلام عن فن المنطق» — تعطينا صورة واضحة عما كان يجري في ذلك الوقت من نقاش وجدل بين المؤيدين لدراسة المنطق والمانعين لها . لذلك أنشر منها قطعة . قال تحت هذا العنوان :

صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام

« وبعده فقد كنت قديماً في سنة سبع أو ثمان وثمانمئة ألفت كتاباً في تحريم الاشتغال بفن المنطق سميته « التول المشرق » ضمنته نقول أئمة الاسلام في ذمه وتحريمه وذكرت فيه أن شيخ الاسلام أحد المجتهدين تقي الدين بن تيمية ألف كتاباً في نقض قواعده ولم أكن إذ ذاك وقفت عليه ومضى على ذلك عشرون سنة فلما كان في هذا العام وتحدثت بما أنعم الله به عليَّ من الوصول الى رتبة الاجتهاد . ذكر ذاكر أن من شروط الاجتهاد معرفة فن المنطق. وقد فقد هذا الشرط عندي بزعمه، وما شعر المسكين أني أحسنه أكثر ممن يدَّعيه ويناضل عليه ، وأعرف أصول قواعده وما بنيت عليه وما يتولد منها معرفةً ما وصل اليها شيوخ المناطقة الآن إلا شيخنا « الكافيجي » فقط . فتطلبت كتاب ابن تيمية حتى وقفت عليه فرأيته سماه « نصيحة أهل الايمان في الرد على منطق اليونان »

وأحسن فيه القول ما شاء من نقض قواعده قاعدة قاعدة وبيان فساد أصولها فلخصته في تأليف لطيف سميته « جهد القريحة في تجريد النصيحة » .

ثم إن كثيراً من المخطئين الذين هم عن تحقيق العلم بمعزل لهجوا بأن يقولوا ما الدليل على تحريمه ؟ وما مستند ابن الصلاح في افتائه بذلك ؟ ونحو ذلك من العبارات. والعجب أنهم يناضلون عن المنطق ولا يتقنونه . ويدأبون فيه وفي أبحاثهم لا يستعملونه فيخبطون فيه خبط عشواء ، ولا يهتدون عند المناظرة والاستدلال إلاَّ إلى عمياء .

ولقد اجتمع بي بعض من قطع عمره في المنطق فرأى قول ابن الصلاح في فتاويه : « وليس الاشتغال بتعلمه وتعليمه مما أباحه الشارع ولا استباحه أحد من الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين والسلف الصالحين » فقال : هذه شهادة على نفي فلا تقبل . فقلت : يا سبحان الله . لا طريق أهل الشرع سلكتم ولا طريق أهل المنطق اعتمدتم ! أما أهل الشرع فيقولون : إن النفي إذا كان من أهل الاستقراء التام فانه يقبل ويعتمد . وقد جرى على ذلك أهل الحديث ، وأهل الفقه ، وأهل العربية لغة ونحواً وتصريفاً .

وقد رأيت أن أصنف كتاباً مبسوطاً على طريقة أهل الاجتهاد والاستدلال جامعاً مانعاً

وبالحق صادعاً أين فيه صحة ما ادعاه ابن الصلاح من نسبة نفي الاباحة الى المذكورين. ولما شرعت ولم منه الانجرار الى نقل نصوص الأئمة في منع النظر في علم الكلام لما بينهما من التلازم صميت الكتاب « صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام » ... الخ. انتهى كلام السيوطي.

لا يعنينا هنا تتبع تاريخ هذه الظاهرة وهل أول من شنها بمصر السيوطي أم سبقه بها غيره كابن تيمية مثلاً وقد أقام بمصر مدة سبع سنين كان طبعاً يبث فيها أفكاره، لا يعنينا هذا بل الذي نقصده هو أن علماء مصر لم يسلموا من التأثر بالقول بتحريم الاشتغال بالمنطق وظهر هذا الأثر في جدلهم ونقاشهم ومؤلفاتهم فضر ذلك بسير الحياة العلمية في مصر أو بعبارة أخرى في الازهر فقد كانت عائقاً عن التقدم العلمي وكانت حرباً على علم غايته ترقية فكرة الحق.

ولي أو للقارىء أن يسأل اذا كان من شروط الاجتهاد معرفة المنطق كما يعترف بذلك السيوطي نفسه فكيف يحرم الاشتغال به تعلماً وتعليماً ابن الصلاح وابن تيمية والسيوطي؟

وإذا كانت الظاهرة الأولى أفتى بها في الشام وأخذت تسعى حتى دخلت مصر فتأثرت بها الحركة العلمية في الأزهر فلقد ظهرت الثانية ونهي النهي عن التأليف في مصر فتنادى بها عالم من علمائها هو شمس الدين البابلي الشافعي القاهري الأزهري المتوفى سنة ١٠٧٧ هـ.

نهى البابلي هذا عن التأليف واعتبره مضيعة للوقت فلقد فرغ في زعمه التأليف في سائر الفنون قال « في خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر ج ٤ ص ٤١ » :

« التأليف في هذه الأزمان من ضياعة الوقت فان الانسان إذا فهم كلام المتقدمين الآن واشتغل بتفهيمه فذاك من أجل النعم وأبقى لذكر العلم ونشره، والتأليف في سائر الفنون مفروغ منه وإذا بلغه أن أحداً من علماء عصره ألف كتاباً يقول: لا يؤلف أحد كتاباً إلا في أحد أقسام سبعة ولا يمكن التأليف في غيرها وهي إما أن يؤلف في شيء لم يسبق إليه يخترعه، أو شيء ناقص يتممه، أو شيء مستغلق يشرحه، أو طويل يختصره دون أن يخل بشيء من معانيه، أو شيء مختلط يرتبه أو شيء أخطأ فيه مصنفه يبينه، أو شيء مفرق يجمعه». انتهى كلام البابلي.

وإذا كانت الظاهرة الأولى قد غلت العقل عن النظر في علم المنطق ومن باب أولى الفلسفة التي هي كلٌّ لهذا الجزء غلته عن العلم الذي يرينا كيف نفكر بل كيف ينبغي أن نفكر . فهي من ناحية أخرى قد أضرّت بالحياة الاجتماعية ، فأوقعت بعض الأفراد في نزاع جرّ إلى خصومة فعداوة .

اذا كانت الظاهرة الأولى قد فعلت فعلها هذا فوق ما ضيعت من وقت في نقاش فارغ فان الظاهرة الثانية — ظاهرة النهي عن التأليف — قد خلقت لنا هذه الحواشي والتقارير وتقارير التقارير . وما الى ذلك من الغلو في الصناعات اللفظية .

***

والآن أعرض أشهر الكتب الازهرية التي تدرس في الازهر لنرى العصور التي ألفت فيها ، وأثر الأزهر في هذه الكتب ، وفي أي العلوم كان أكثر أثراً .

.....

أشهر الكتب التي تدرس في الازهر

النحو

١ — اجرومية محمد بن داود الصنهاجي توفى عام ٧٣٣ هـ

شروحها

١ — شرح الشيخ حسن الكفراوي المتوفي عام ١٢٠٢ هـ

٢ — « « خالد الأزهري « « ٩٠٥ هـ مع حاشيتي أبي النجا والعطار

٢ — كتب ابن هشام المتوفي عام ٧٦١ هـ

١ — قطر الندى ٢ — شذور الذهب ٣ — مغني اللبيب

٣ — ألفية ابن مالك المتوفي عام ٦٧٢ هـ

شروحها

١ — ابن عقيل المتوفي ٧٦٩ هـ

٢ — الاشموني « ٩٠٠ هـ مع حاشية الصبان المتوفي ١٢٠٦ هـ

علوم البلاغة

١ — رسالة أبي القاسم السمرقندي المتوفى سنة ٨٠٩ هـ مع شروحها وحواشيها
٢ — رسالة الدردير « « ١٢٠١ هـ
٣ — تلخيص المفتاح للقزويني « « ٧٣٩ هـ وأهم شروحه
١ — مطول سعد الدين التفتازاني المتوفى ٧٩١ هـ

المنطق

١ — سلم الأخضري المتوفى عام ٩٤١ هـ
٢ — ايساغوجي وضعه فرفريوس وشرحه الأبهري المتوفى عام ٦٦٣ هـ
٣ — الشمسية لعلي بن عمر القزويني المتوفى عام ٦٧٥هـ
٤ — موجز لمحمد بن يوسف السنوسي المتوفى عام ٨٩٢ هـ

التوحيد

١ — الجوهرة لابراهيم بن ابراهيم اللقاني ١٠٤١ هـ
٢ — الفريدة للدردير (سبق ذكره)
٣ — كتب السنوسي (ذكر سابقاً)
٤ — عقائد النسفي : لنجم الدين أبو حافظ عمر بن محمد توفى سنة ٥٣٧ هـ

التفسير

١ — الجلالين للامامين الجليلين جلال الدين المحلي المتوفى ٨٦٤هـ وجلال الدين السيوطي المتوفى ٩١١ هـ
٢ — فخر الدين الرازي المتوفى ٦٠٦ هـ
٣ — السراج المنير للخطيب القزويني « ٩٧٧ هـ
٤ — ارشاد العقل السليم لأبي مسعود العمادي التركي « ٩٨٢ هـ

٥ — البيضاوي المتوفي ٧١٦ هـ
٦ — السيوطي « ٩١١ هـ
٧ — الطبري « ٣١٠ هـ
٨ — مدارك التنزيل وحقائق التأويل لأبي البركات المعروف بالنسفي توفي سنة ٧٠١ هـ أو ٧١٠ هـ .

الحديث والسيرة والمصطلح

١ — المواهب اللدنيّة للقسطلاني المتوفي سنة ٩٢٣ هـ
٢ — الشمائل للترمذي « ٢٧٩ هـ
٣ — الجامع الصغير للسيوطي « ٩١١ هـ
٤ — الشفا للقاضي عياض « ٥٤٤ هـ
٥ — البيقونية أنه أحد علماء القرن الحادي عشر للهجرة

الاصول

١ — جمع الجوامع لعبد الوهاب السبكي المتوفي سنة ٧٧١ هـ
٢ — ابن الحاجب « « ٦٤٦ هـ

الفقه

١ — فقه الحنفية

١ — الهداية لعلي المرغناني المتوفي ٥٩٣ هـ
٢ — كنز الدقائق لعبد الله بن احمد النسفي المتوفي ٧١٠ هـ ، مع شروح العيني المتوفي ٨٥٧ هـ ، وملاّ مسكين المتوفي ٩٥٠ هـ ، وابن نجم المتوفي ٩٧٠ هـ ؛ ومصطفى القاني المتوفي ١١٩٢ هـ .
٣ — نور الايضاح لحسن الشرنبلالي المتوفي ١٠٦٩ هـ
٤ — مراقي الفلاح مع حاشية الطحطاوي المتوفي ١٢٣١ هـ .

٥ — شرح الحصكفي المتوفي عام ١٠٨٨ هـ المسمى الدر المختار مع حاشية ابن عابدين المتوفي ١٢٥٣ هـ على تنوير الأبصار لمحمد بن عبد الله التمرتاشي المتوفي سنة ١٠٠٤ هـ.

٦ — كتاب غرر الأحكام وشرحه المسمى درر الأحكام للا خسرو المتوفي عام ٨٨٥ هـ.

٢ — فقه الشافعية

١ — منهاج الطالبين للنووي المتوفي عام ٦٧٦ هـ ، وهو مقتبس من كتاب المحرر للرافعي المتوفي عام ٦٢٣ هـ. وأشهر الشروح التي كتبت على المنهاج هي :

٢ — النهاية للرملي المتوفي سنة ١٠٤٤ .

٣ — تحفة المحتاج لابن حجر الهيتمي المتوفي عام ٩٧٣ أو ٩٧٤ هـ .

٤ — التحرير لزكريا الانصاري المتوفي عام ٩٢٦ هـ .

٥ — منهج الطلاب لزكريا الانصاري أيضاً .

٦ — شرح ابن القاسم الغزي المتوفي عام ٩١٨هـ المسمى القول المختار.

٧ — مختصر أبي شجاع الأصفهاني المتوفي حوالي عام ٥٠٠ هـ .

٣ — فقه المالكية

١ — الرسالة لعبدالله بن أبي زيد القيرواني المتوفي عام ٣٨٨ هـ . وقد شرح هذه الرسالة كثيرون منهم: أبو الحسن الشاذلي المتوفي ٩٣٩هـ ، والنتائي المتوفي عام٩٤٢هـ ، والأجهوري المتوفي ١٠٦٦ هـ.

٢ — مختصر خليل بن اسحق المتوفي ٧٦٧هـ ولهذا المختصر الذي كتبه مكانة سامية بين المالكية أشبه بمكانة كتاب النووي بين الشافعية. وقد شرحه كثيرون نذكر من بينهم الحطاب والمازري والنتائي ، والأجهوري ، وعبد الباقي بن يوسف الزرقاني المتوفي ١٠٩٩هـ، والخرشي المتوفي عام ١١٠١ هـ، والدردير المتوفي ١٢١٠هـ ومحمد عليش المتوفي سنة ١٢٩٩ هـ .

٣ — متن العشماوية لعبد الباري العشماوي مع شرح احمد بن التركي المتوفي حوالي عام ٩٩٢ هـ .

٤ — العزية وقد شرحها كل من ابن التركي والفيشي والزرقاني .

٤ — فقه الحنابلة

١ — دليل الطالب لمرعي بن يوسف المتوفي ١٠٣٣ هـ ومنتهى الايرادات لمحمد بن أحمد الفتوحي .

* * *

هذه هي أشهر الكتب الأزهرية والعصور التي ألفت فيها .

واذا نظرنا الى أثر الأزهر في هذه العلوم ونسبنا العالم المصري الى الأزهر نجد أن الازهر له أكبر الأثر في أصول الفقه وفي النحو والحديث والتفسير والفقه فابن السبكي [1] وابن الحاجب [2] مصريان . وكذلك النحو فابن هشام مصري وهو الذي قال عنه ابن خلدون « ما زلنا ونحن بالمغرب نسمع أنه ظهر بمصر عالم بالعربية أنحى من سيبويه » . إلى آخر ما تراه بعد أن ترجع إلى جنسية مؤلف الكتاب .

هذه صورة مصغرة عرضناها للأزهر القديم والآن نرى الأدوار التي مرّت به حتى وصل الى ما هو عليه الآن .

---

(١) عبد الوهاب السبكي ولد بالقاهرة ولازم الاشتغال بالفنون على أبيه وغيره حتى مهر وهو شاب ويخبرنا صاحب كتاب معجم المطبوعات العربية والمعربة بقوله « ومما قرأته في كتاب مخطوط ما يأتي أجاز له ابن النحاة ويونس الدبوسي وسمع الصابوني وابن سيد الناس ثم قدم مع والده الى دمشق فسمع بها على زينب بنت الكمال وقرأ بنفسه على المزي ولازم الذهبي وقال الشيخ عبد الوهاب الشعراني في كتابه الاجوبة المرضية أن أهل زمانه رموه بالكفر وتحزبوا عليه وأتوا به مقيداً مغلولا من الشام الى مصر وحبسوه ثلاثة من الدهر يتهددوا عليه ثم تداركه الله على يد الشيخ جلال الدين الاسنوي . وكتب به جمع الجوامع هذا جمعه من زهاء مائة مصنف مشتمل على زبدة ما في شرحه على مختصر ابن الحاجب والمنهاج مع زيادات وبلاغة في اختصار (معجم المطبوعات العربية والمعربة يجمع نؤاد الاول لغة العربية تحت نمرة ١٥٨٦ ج ٢ عمود ١٠٢ ، ١٠٣) .

(٢) ابن الحاجب ولد باسنا في الصعيد وقرأ على الشاطبي بعض القراءات وسمع الحديث عليه وأخذ الفقه عن أبي منصور الابياري وانتقل الى دمشق ودرس بجامعها في زاوية مالكية وكتب الفضلاء على الاخذ عنه ثم عاد الى مصر وتوفي بالاسكندرية ودفن خارج باب البحر بتربة الشيخ العالم ابن أبي شامة

خطوات الازهر

جاء السيد جمال الدين الأفغاني إلى مصر فغرس في نفوس أبنائها حكمته الخالدة : «لا يجتمع الذل والاسلام في قلب واحد» وجدت هذه الكلمة في نفوس تلاميذ الشيخ مكاناً خصباً فنمت وترعرعت ، حتى أثمرت تلك النهضة الجديدة التي حمل لواءها بعده تلميذه المخلص الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده .

حمل الأستاذ الامام لواء النهضة منادياً بكلمته المقهورة الخالدة « الايمان الذي يجتمع معه أدنى خوف من المخلوقات ليس بإيمان . ومن كان عنده من الثقة بالله ما لا يخشى معه أحداً فهو المؤمن . وهذا الايمان هو الذي يضع رجل صاحبه في عتبة الجنة » .

وماذا يصنع ؟ وجه همته فيما وجه إلى إصلاح الأزهر ، فهو معقل الدين ، وحصن اللغة ، ومنه ينبغي أن تخرج المثل العليا للناس . أما أن يبقى على ما هو عليه فذلك مما يضر ولا ينفع

نظر إلى الأزهر وقتئذٍ فوجده لا نظام له ، والطلبة مهملين ، والعلماء الذين هم قدوة الناس وأئمتهم ، أقرب إلى التأثر بالأوهام والانقياد إلى الوساوس من العامة وأسرع إلى متابعتها منهم وعلة ذلك فساد طرق التعليم والتربية في الأزهر.

كان الأزهر وقتئذٍ يرغب عن بعض العلوم ولا يرى في الاشتغال بها فائدة ، بل يحرّمها . مثلاً كانوا يرغبون عن التاريخ . فصرخ فيهم صرخة قائلاً : « إذا بقيتم على جهلكم بالتاريخ إلى هذا الحد فلا يمكنكم أن تعرفوا دينكم ولا نجاح لكم في دنياكم ، إن قراءة التاريخ واجب من الواجبات الدينية ، وركن من أركان اليقين فلا بد من تحصيله » .

رآهم يحرصون عن دراسة الأدب فقال لهم : « ترك الاشتغال بدقائق الفصاحة ، والبلاغة ، والبراعة موت للحياة العقلية » .

رآهم في شبه عزلة عن الأمة فقال : « من أكبر التقوى على الهمة ، والسعي في مصلحة الأمة ، ونفع الناس » .

رأى أسلوب التعليم في الأزهر إنما يعني أكثر ما يعني بالصناعية اللفظية، ويطبق ذلك حتى على القرآن الكريم فقال : « لا يمكن لهذه الأمة أن تقوم ما دامت هذه الكتب فيها — يعني كتب التعليم التي تدرس في الأزهر وأمثالها — ولن تقوم إلا بالروح التي كانت في القرن الأول وهي القرآن، وكل ما عداه فهو حجاب قائم بينه وبين العمل والعلم .. ثم قال: إنما يصعّب القرآن توهم أنه صعب . وكلما أدخل الانسان على نفسه الصعوبة صعب عليه . وكلما مكن نفسه من الفهم مكنه الله منه . إن لكلام الله أسلوباً خاصاً يعرفه أهله ومن امتزج بلحمه ودمه . وأما الذين لا يعرفون منه إلا مفردات الالفاظ وصور الجمل فأولئك عنها ميعدون . يجب على كل شخص له إلمام صحيح ، أن يعقل عقائده على الوجه الذي في كتاب الله وسنة رسوله » الى آخر ما قال .

***

هذا هو حال الازهر في القرن الماضي ، وكان رأي الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده في اصلاح الازهر يوضحه هذه الكلمات التي سقناها له .

ولاحل أن تصوراً أكثر ماكان عليه الأزهر يومئذٍ ننشر له مقالا كتبه هو نفسه تحت عنوان « الجامع الازهر » ، ثم ننشر له بعد ذلك بعض اقتراحات اقترحها لاصلاح دار العلوم ورأى أنها لازمة ليمكن أن ينتهي أمرها الى أن تحل محل الازهر وعند ذلك يتم توحيد التربية في مصر .

قال : « الجامع الازهر مدرسة دينية عامة يأتي اليها الناس إما رغبة في تعليم علوم الدين رجاء ثواب الآخرة، وإما طمعاً في بعض الامتيازات لطلاب العلم فيه، ولا يزال بعضها إلى اليوم . ولكن مما يؤسف عليه أنه لا نظام لها في دروسها . ولا يسأل فيها التلميذ أيام الطلب عن شيء من أعماله . ولا يبالي أستاذه حضر عنده في الدرس أم غاب ، فهم أم لم يفهم . صلحت أخلاقه أم فسدت . ويمر عليه الزمان الطويل ، لا يسمع فيه نصيحة من أستاذه تعود عليه بالصلاح في دنياه أو دينه، وإنما يسمع منها ما يملأ القلب بغضاً لكثير من

لم يكن على شاكلته في الاعتقاد حتى من بني ملته ، ويطبق على الذهن غفلته ، ويستفزه الطيش لتصديق كل ما يسمع ؛ إذا كان موافقاً لمبدأ التعصب الجاهلي ، فأغلب الاوقات تمر على أهل الجد منهم في فهم مباحث لبعض المتأخرين لا فائدة فيها ، ولا يتعلمون من الدين إلاّ بعض المسائل الفقهية . وطرفاً من العقائد على نهج يبعده عن حقيقته أكثر مما يقرب منها . وجلّ معلوماتهم تلك الزوائد التي عرضت على الدين . ويخشى ضررها ولا يرجى نفعها .

ثم ان المعروفين بالعلماء وهم الذين يتممون دروسهم في هذه المدرسة ، ويؤذن لهم بالتدريس فيها ، هم قدوة الناس وأئمتهم ، مع أنهم أقرب الى التأثر بالأوهام ، والانقياد إلى الوساوس من العامة ، وأسرع الى مشايعتها منهم . وذلك بما ينشأون عليه من التعاليم الردية والتربية المختلفة التي لا ترجع إلى أصل صحيح فبقاؤهم فيما هم عليه اليوم مما يؤخر الرعية عن تقدير السلطة الصالحة قدرها .

إصلاح الأزهر لا بد أن يكون بالتدريج في تغيير نظام الدرس وجعلها في الابتداء تحت قواعد ساذجة قريبة من الحال الحاضرة فيها ، بحيث يقرر فيها أن كل من أدرج اسمه في جدول الطلبة يلزم بالحضور في الدروس وإلاّ حرم الامتياز ، وكل أستاذ يسأل عن طلبته ثم يجعل ما يتالونه من المنافع الطفيفة منوطاً بالفهم لا بالكتب ، وتغيير بروجرام الدروس ويزاد عليه أصناف من الكتب بحيث يدخل فيه تدريس الآداب الدينية المفقودة الآن بالكلية ، ويكلف الاستاذ بتعهد أخلاق تلميذه ، لتكون منطبقة على تلك الآداب بقدر الامكان ، ويجعل شيخ الجامع رقيباً على الاساتذة والتلامذة في ذلك ، ثم يعدّل نظام الامتحان النهائي وشروطه . وكل ذلك يكون على طرق بسيطة لا توجه الأذهان إلى شيء خلاف المصلحة وتفصيلها يكون في لائحة مخصوصة . . . وقد يظن بعض من لم يتفكر في حال البلاد ومرتبتها الأدبية والدينية أن إصلاح الأزهر لا يمكن ، لأنه يترتب على مجرد الشروع فيه تشويش أذهان العلماء ، والعامة على إثرهم ، فهذا ظن فاسد لا يؤيده دليل ، ولم تنقض به تجربة . إلاّ ما كان من بعض الرؤساء من مدة عشرين سنة ، عند ما أراد ادخال بعض العلوم الصناعية فيه ، فقاومه بعض من كان موجوداً من العلماء فيئس من الاصلاح وترك الأمر الى اليوم ، فقد كان ذلك قبل أن تتقلب الحوادث على مصر ، ولم يكن بالتدريج اللائق ، أما الآن فقد تغيرت

الاحوال وأصبح الاصلاح فيه أهون منه في جميع المصالح » . انتهى المقال

وها هي ذي بعض الاقتراحات أنشرها وهي من غير شك تلقي ضوءاً امام المفكرين في أمر التعليم . ولما كانت هذه الاقتراحات خاصة بدار العلوم كما قلنا حذفت منها ما يشير إلى المدرسة وليس في ذكره هنا فائدة . ادمنا بصدد الكلام على الأزهر .

١ — زيادة بعض علوم منها علوم الآداب الدينية ، وفن أصول النظام مع تعلقه بالدين .

٢ — تغيير طريقة تدريس تفسير القرآن وتعلم الاحاديث النبوية .

٣ — اختيار معلمين صالحين للقيام بالعمل الموصل الى الغاية المطلوبة .

٤ — وهو أهم ما يجب ، أن يكون تحت نظام شديد في التهذيب وملازمة العمل بما يعلمون .

٥ — أن تكون درجتهم في الوظائف على حسب أديهم واقتدارهم على التأديب .

٦ — ان يكون للموظف سلطة تامة على تهذيب التلامذة ، وتربية نفوسهم وتقويم أخلاقهم وطباعهم وأرقاهم وظيفة يكون رئيساً لمن دونه

٧ — أن يبقوا بلباسهم الذي هو لباس أهل الدين مهما ترقوا في الوظائف

ثم قال : يلزم لهذا المشروع كتب تؤلف جديداً ولوائح تنظم للعمل على مقتضاها وذلك كله يمكن بعد العزم على الاجراء » .

ذلك المقال يصوّر لنا إلى حدٍّ كبير حال الأزهر في القرن الماضي كما يصوّر حال الطلاّب ويصوّر ما كان عليه الأساتذة وكيف كان يطعن هؤلاء الأساتذة كل من لم يكن على شاكلتهم في الاعتقاد حتى من بني ملته ، ويصوّر رغبة المجدين من الطلاب عن هذا اللون من التعليم وانصرافهم الى الاشتغال بمباحث لبعض المتأخرين لا فائدة فيها ، كما يصوّر مقدار ما كان يدرس في الأزهر متعلقاً بالدين . ويصوّر جل معلومات الأزهريين في ذلك الوقت وأنها كانت تلك الزوائد والأوشاب التي علقت بالدين وليست منه ، والتي يخشى ضررها ولا يرجى نفعها . وأخيراً يبين حال أساتذة الأزهر وأنهم كانوا أقرب الى التأثر بالأوهام والانقياد الى الوساوس من العامة وأسرع الى مشابهتها منهم . ثم يرجع سبب كل هذا الى فساد طرق التعليم والتربية المختلفة التي لا ترجع الى أصل صحيح . وفي النهاية ينادي بأن ترك الأزهر على هذه الحال — التي كانت في القرن الماضي — مما يضر بالامة .

رأى هذه الحال الاستاذ الامام في الازهر رؤية طالب مكث فيه السنين الطويلة وخبرها خبرة رجل مارس التعليم فيه، واحتك برجاله والقائمين على أمره فشغل أمر الازهر باله وأقض جمود من فيه مضجعه، رأى ذلك غيوراً على الاسلام والمسلمين، مكتئباً لما وصلت اليه الدراسات الاسلامية في الازهر، فأخذ يحتال لارضاء الازهريين ليتمكن من إدخال بعض العلوم فيه حتى يؤدي رسالته على الوجه الذي ينبغي أن يكون. نعم أخذ يحتال.

يقول أستاذنا الجليل معالي أحمد لطفي السيد باشا في كتابه المنتخبات (ج ٢ : ص ٥٢) كان استاذي الامام محمد عبده يحتال لارضاء الازهر بأن يسمي علم الطبيعة « علم خواص الاشياء التي أودعها الله في الاجسام، كذلك كان، وكذلك صدر قانون ملوسة القضاء الشرعي »

هذه صورة الازهر في القرن الماضي صورها الأستاذ الامام نفسه وفيها نرى المجهود الذي بذله الأستاذ الامام في سبيل الاسلام والمسلمين بمحاولته إصلاح الازهر.

* * *

بعد ذلك نعرض الادوار التي مرت بالازهر حتى وصل الى ما هو عليه الآن من نمو بفضل البذرة التي بذرها السيد جمال الدين الافغاني، وتعهدها من بعده تلميذه الاستاذ الامام محمد عبده، ويقوم الآن على حراستها ورعايتها تلميذه المخلص الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق.

لما ولي الخديو عباس الثاني الحكم تقدم اليه الشيخ محمد عبده بخطة لاصلاح الأزهر فوفق الى استصدار قانون تمهيدي في رجب سنة ١٣١٢ هـ — ١٥ يناير سنة ١٨٩٥م وتألف مجلس لادارة الأزهر من أكابر شيوخه الذين يمثلون المذاهب الأربعة. وعني المجلس بحركة الاصلاح فجعل للشيوخ مرتبات، واستصدر قانوناً لكساوي التشريف، واهتم بمساكن الطلبة وعمل على توزيع الجراية، وحدد العطلات. وقصر أجلها وأدخل بعض العلوم الحديثة، وعني بمكتبة الأزهر، وأنشأ مكتبات في المعاهد الملحقة به. وانتقل الأزهر بالقانون رقم ١٠ لسنة ١٩١١ الى مرحلة أخرى من النظام إذ زيدت فيه مواد الدراسة وبين اختصاص شيخ الجامع الأزهر. وأنشيء له مجلس تحت رئاسة شيخه يسمى « مجلس الأزهر الأعلى » ووضع فيه نظام لهيئة كبار العلماء، وجعل لكل مذهب من المذاهب الأربعة شيخ، ولكل معهد من المعاهد مجلس ادارة.

استمر الأزهر خاضعاً لهذا القانون مع ما لحقه من التعديل الى أن صدر القانون رقم

٣٣ لسنة ١٩٢٣ بانشاء قسم التخصص . وفي ٢٤ جمادى الآخرة لسنة ١٣٤٩ هـ (١٥ نوفمبر سنة ١٩٣٠) صدر مرسوم بقانون رقم ٤٩ لسنة ١٩٣٠ باعادة تنظيم الجامع الأزهر والمعاهد الدينية العلمية الاسلامية ، وبدىء العمل به من سنة ١٩٣١ وهو القانون الذي وضع أساسه الأستاذ الامام المراغي . وقد جعل هذا القانون التعليم في الأزهر أربع مراحل .

مراحل التعليم في الازهر

والعلوم التي تدرس فيه

١ — ابتدائي : ومدته أربع سنوات ويدرس فيه من المواد ما يلي :—

الفقه . الأخلاق الدينية . التجويد . استذكار القرآن الكريم . التوحيد . السيرة النبوية . المطالعة . المحفوظات . الانشاء . النحو . الصرف . الاملاء . الخط . التاريخ . الجغرافية . الحساب . الهندسة العملية . مبادىء العلوم . تدبير الصحة . الرسم .

* * *

٢ — ثانوي : ومدته خمس سنوات ، ويدرس فيه من المواد ما يلي : —

الفقه . التفسير . الحديث . التوحيد . استذكار القرآن الكريم . النحو . الصرف . البلاغة (معاني . بيان . بديع) العروض والقافية . المطالعة المحفوظات . الانشاء . أدب اللغة . حساب . هندسة . جبر . طبيعة . كيمياء . تاريخ طبيعي . المنطق . التاريخ . الجغرافية الأخلاق . التربية الوطنية

* * *

٣ — عالٍ : ومدته أربع سنوات ، وينقسم الى ثلاث كليات :

(ا) كلية اللغة العربية : ويدرس فيها من المواد ما يلي :

النحو . الوضع . الصرف . المنطق . علوم البلاغة . الآداب العربية وتاريخها . تاريخ العرب قبل الاسلام . تاريخ الامم الاسلامية . التفسير الحديث . الأصول . الانشاء . فقه اللغة .

* * *

(ب) كلية الشريعة : ويدرس فيها من المواد ما يلي :

التفسير . الحديث متناً ورجالاً ومصطلحاً . أصول الفقه . تاريخ التشريع الاسلامي .

الفقه مع مقارنة المذاهب في المسائل الكلية حكمة التشريع ، آداب اللغة العربية . علوم البلاغة . المنطق .

* * *

(ج) كلية أصول الدين : ويدرس فيها من المواد ما يلي :

التوحيد مع إيراد الحجج ودفع الشبه خصوصاً الذائع في العصر منها : المنطق . والمناظرة . الفلسفة مع الرد على ما يكون منافياً للدين منها . الأخلاق . التفسير . الحديث آداب اللغة العربية وتاريخها . تاريخ الاسلام . علم النفس . علوم البلاغة .

* * *

٤ — التخصص وهو على نوعين : تخصص في المهنة وتخصص في المادة . والغرض من التخصص في المهنة إعداد علماء يقومون بمهمة الوعظ والارشاد أو الوظائف القضائية بالمحاكم الشرعية والافتاء والمحاماة أو التدريس في المعاهد الدينية ومدارس الحكومة .

والغرض من التخصص في المادة إعداد علماء متفوقين في العلوم الاساسية لكل كلية من الكليات الثلاث ويعين حاملو شهادة هذا القسم في وظائف التدريس بالكليات وبأقسام التخصص .

وهناك علاوة على ذلك أقسام غير نظامية يسمح فيها بدخول الطلبة الذين لم تتوافر فيهم شروط القبول بالاقسام النظامية ، وكذلك أفراد الجمهور للتوسع في دراسة اللغة العربية والعلوم الدينية . ويطلق عليها اسم القسم العام وهو أشبه شيء بالجامعة الشعبية التي أنشئت أخيراً ومركز هذا القسم الآن الجامع الأزهر نفسه وله فرع في طنطا .

الشهادات

والشهادات التي تعطى للناجحين في الامتحانات هي :

١ — الشهادة الابتدائية :

تمنح لمن أتموا دراسة القسم الابتدائي وتخوّل صاحبها الاندماج في القسم الثانوي .

٢ — الشهادة الثانوية :

تمنح لمن أتموا دراسة القسم الثانوي وتخوّل صاحبها الاندماج في الكليات .

٣ — الشهادة العالية :

تمنح لمن أتموا دراسة كلية من كليات القسم العالي . والحائزون لها يكونون أهلاً للوظائف الكتابية بالجامع الأزهر والمعاهد الدينية والمحاكم الشرعية والمجالس الحسبية والأوقاف والتدريس في المساجد ولوظائف الخطابة والامامة والمأذونية .

٤ — الشهادة العالمية :

تمنح لمن أتموا دراسة التخصص في مهنة التدريس أو القضاء الشرعي أو الوعظ والارشاد والحائزون لها من قسم التخصص في مهنة التدريس يكونون أهلاً للتدريس في المعاهد الدينية وفي مدارس الحكومة. والحائزون لها من قسم التخصص في القضاء يكونون أهلاً للوظائف القضائية بالمحاكم الشرعية والافتاء وللعلماة أمام المحاكم الشرعية والمجالس الحسبية. والحائزون لها من قسم التخصص في الوعظ والارشاد يكونون أهلاً لوظائف الوعظ والارشاد .

٥ — شهادة العالمية مع لقب أستاذ :

تمنح لمن تخصص في مادة من المواد . والحائزون لها يكونون أهلاً للتدريس في الكليات وفي أقسام التخصص .

مجلس الازهر الاعلى

وقضى القانون الجديد بتأليف هيئة تشريعية لها حق النظر في اللوائح والقوانين التي تلزم لسير الدراسة والادارة وغيرها في الازهر والمعاهد الدينية وتسمى تلك الهيئة (مجلس الأزهر الأعلى) .

وهو مؤلف من : —

١ — شيخ الجامع الأزهر رئيساً

٢ — وكيل الجامع الأزهر والمعاهد الدينية . وله رياسة المجلس عند غياب شيخ الجامع الازهر

٣ — مدير الجامع الأزهر

٤ — مفتي الديار المصرية

٥ — مشايخ الكليات الثلاث

٦ — وكيل وزارة الحقانية

٧ — وكيل وزارة الأوقاف

٨ — وكيل وزارة المعارف العمومية

٩ — وكيل وزارة المالية

١٠ اثنين من هيئة كبار العلماء ويعينان بأمر ملكي لمدة سنتين

١١ — اثنين ممن يكون في وجودهم بالمجلس مصلحة للتعليم في الأزهر والمعاهد الدينية ويعينان بمرسوم لمدة سنتين

المعاهد الدينية التابعة للازهر

أطلق اسم الجامع الأزهر في القانون الجديد على كليات التعليم العالي وعلى أقسام التخصص.

وأطلق اسم المعاهد الدينية على معاهد تعليم الدين الاسلامي التي يكون التعليم فيها بقصد تفقه الطلاب في دينهم وفي اللغة العربية واعدادهم لدخول الجامع الأزهر.

والتعليم في هذه المعاهد ابتدائي . أو ابتدائي وثانوي والمعاهد الدينية الآن هي : —

المعاهد الابتدائية والثانوية

(١) معهد القاهرة (٢) معهد الاسكندرية (٣) معهد طنطا (٤) معهد الزقازيق (٥) معهد شبين الكوم (٦) معهد أسيوط (٧) معهد قنا .

المعاهد الابتدائية

(٨) معهد دسوق (٩) معهد دمياط (١٠) صدرت الارادة السنية بمعهد في سوهاج ولما يفتح بعد .

هذه صورة هذا الصرح الذي وضع أساسه الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده وجاء على هذه الصورة بفضل الأسرة العلوية . وبخاصة المغفور له الملك فؤاد الأول ، وإذا كان الملك فؤاد قد عني بالأزهر هذه العناية فان شبله جلالة مليكنا المحبوب فاروق الأول يحبوه بعطف كبير . ويخصه بعناية فائقة .

تراجم

عن رؤساء الازهر وشيوخه

أصدّر الكلام على رؤساء الأزهر وشيوخه بكلمة عن فضيلة شيخه الحالي حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر الشيخ مصطفى عبد الرازق

للشيخ مصطفى عبد الرازق

لو أن الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق أعطى في الأصل أن يختار نفسه بنفسه لما تمنى أكثر مما منّ الله عليه به ؛ فهو أصيل الجدود ، عريق النسب ، من أسرة مشهورة بالعلم والفضل ، فوق ما حباها الله به من نعمة الثراء ، وليس بعد ذلك من زيادة لمستزيد . وفضيلته رجل والرجال قليل ، خصه الله بصفات واضحة فيه وضوح الشمس ، فهو متواضع أشد التواضع ، ندي الكف في غير إعلان عن نفسه ، حتى لا تعلم شماله ما قدمت يمينه ، مؤمن قوي الإيمان ، يمثل عقائده على الوجه الذي في كتاب الله وسنة رسوله ، حيي يمنعه حياؤه عما لا يليق بالرجل الكامل ، مخلص يبذل من نفسه في سبيل عمله ، عالم غزير المادة ، نفذ شعاع العلم إلى قلبه ، فنوّره بنوره ، جمع بين الثقافتين الشرقية والغربية فكان عالماً تعلّم من الكتب والأساتذة ، وتعلّم من سياحاته في أوربا وتجاربه الشخصية في البيئات المختلفة ، وهذه هي أعظم مراتب العلم . شبّ فضيلة الأستاذ من حداثته يشعر بما لم يشعر به الكبار من قومه ، وليس أدل على ذلك من شهادة الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده نفسه في خطاب له أرسله اليه قال :

﴿ رعاك نجاب وفراسة تخوص ﴾

ولدنا الأديب : خير الكلام ما وافق حالاً ، وحوى من النفس منالاً ، تلك أبياتك العشرة رأيتي والحمد لله مقربياً في سبعة منها كأنها الكواكب تسكنها الملائكة ، وما هي كأنه الشهب نور للأحياء ، ورجوم للأشقياء ، ما سررت بشيء سروري بأنك شعرت من علم حداثتك بما لم يشعر به الكبار من قومك ، فلله أنت ولله أبوك ، ولو أدن لزدت أن بقابل وجه ولدي بالمدح لسقت إليك من الثناء ما يملأ

عليك القضاء ، ولكني أكتفي بالاخلاص في الدعاء أن يمتعني الله من نهايتك بما تمنّيته في بدايتك ، وأن يخلص للحق سرك ، ويقدرك على الهداية اليه وينشط بنفسك لجمع قومك عليه والسلام

***

آمنت بالله : دعاء يجاب وفراسة تتحقق ، فانعي يا روح الأستاذ الامام وتمتعي بأثر إخلاصك في الدعاء ، فمن ابتهلت الى الله من أجله هو امام المسلمين اليوم .

وأسرة آل عبد الرازق تعرف حتى الساعة في صعيد مصر بأسرة القضاء ، ذلك أن مؤسسها كان قاضي خط البهنسا . وهذه الأسرة أثر كبير في العلم والأدب في تاريخ مصر الحديث فليس من رجالات مصر وعلمائها من يجهل سراي آل عبد الرازق التي كانت بجوار قصر عابدين أمام باب باريس . كانت هذه الدار ملتقى أهل العلم والفضل والأدب تضيئهم كل ليلة بنور العلم والتقى .

وليس في مصر من ذوي الرأي والحجى من لم يأنس بها وصبا الى ناديها . وعرف لها في كل نواحي الخير فضلاً مذكوراً . وهل في مصر أو الشرق من لم يعرف حسن باشا عبد الرازق الكبير — لقب بهذا اللقب للتمييز بينه وبين ابنه حسن باشا عبد الرازق الصغير شقيق فضيلة الأستاذ الأكبر — كان رضوان الله عليه عالماً من أفاضل علماء الأزهر ونبهائهم ، وكان فقيهاً أديباً نظم الشعر ولكن لم ينشره كعادة بعض العلماء وقتئذٍ ، وظهر علمه بالفقه في مجلس شورى القوانين فلقد أعانه فقهه على فهم القوانين ودقة النظر في انتقادها حتى كان من رجالات المجلس يشار اليه بالبنان .

وجّه حسن باشا أبناءه توجيهاً حسناً يشهد له بالعلم ، والفضل ، فوجّه حسناً وحسيناً الى مدرسة الحقوق .

فكان الأول محامياً أهليًّا ومدرساً بمدرسة البوليس ، وألزم الثاني بعد أن قبل محامياً في المحكمة المختلطة بأن يكون عمدة في بلده « أبو جرج » ووجه « محمود باشا » الى الادارة وابراهيم واسماعيل الى مدرسة الزراعة . ووجه أستاذنا الأكبر والشيخ المحترم علي بك عبد الرازق إلى التعليم الديني . فحفظ الأستاذ الأكبر القرآن الكريم وتعلم التعليم

الأولي في احدى المكاتب، ثم التحق بالازهر، وتلمذ للأستاذ الامام الشيخ محمد عبده فكان طالباً مجدّاً نجيباً . وأخذ فضيلته شهادة العالمية سنة ١٩٠٩ فكان أول فرقته ترتيباً وأصغر زملائه سنّاً، وسافر الى فرنسا فالتحق « بالسوربون » في باريس لدراسة الفلسفة وعنى من فروعها بالأخلاق وعلم الاجتماع . ثم استدعاه الاستاذ «لمبرت» Lambert الذي كان من قبل ناظراً لمدرسة الحقوق المصرية الى ليون ليساعده في درس القانون المقارن ، وعهد اليه بتدريس الشريعة الاسلامية في كلية ليون كما عهد اليه أيضاً بتدريس اللغة العربية في ليون نفسها وعمل في فرنسا رسالة عن الامام الشافعي بالفرنسية بالاشتراك مع أحد المستشرقين ، وله أيضاً بالفرنسية دراسة عن الوحي وأخرى عن الاسلام . وله عدة محاضرات ألقاها فضيلته في جامعة بيروت عن الدين . وهذه الأبحاث « الدين والوحي والاسلام » نشرتها الجمعية الفلسفية المصرية في مؤلف خاص في سنة ١٩٤٥ . ولفضيلته أيضاً كتاب عن فيلسوف العرب والمعلّم الثاني نشرته الجمعية .

وله دراسات عن البها زهير . والتمهيد في تاريخ الفلسفة . وكتاب عن الشافعي نشر في مجموعة أعلام الاسلام . وكتاب عن الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده . ولفضيلته زيادة على ذلك مؤلفات لم تنشر في المنطق ، والتصوف ، والأدب العربي .

ولما عاد من فرنسا اشتغل سكرتيراً عامّاً للأزهر والمعاهد الدينية ، ثم نقل الى وزارة الحقانية مفتشاً للمحاكم الشرعية . ثم عين سنة ١٩٢٧ أستاذاً للفلسفة الاسلامية والمنطق بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول . في سنة ١٩٣٨ أختير وزيراً للاوقاف في وزارة رفعة محمد باشا محمود، ولم يقطع صلته بالجامعة في البحث والدرس طيلة السنين التي تولى فيها الوزارة بل كان يلقي المحاضرات ويشترك في مناقشة الرسائل .

وتقلد الوزارة غير مرة تقلدها مرتين في وزارة رفعة محمد محمود باشا ، ومرة في وزارة حسن صبري باشا ، وحسين سري باشا ، واحمد ماهر باشا ، والنقراشي باشا الى أن عين شيخاً للازهر في ديسمبر سنة ١٩٤٥

ولما صدر الأمر الملكي بتعيينه شيخاً للأزهر طلب من مولانا جلالة الملك فاروق الأول إعفاءه من لقب « باشا » فتفضل باعفائه .

هذا هو فضيلة الأستاذ الامام الشيخ مصطفى عبد الرازق في تاريخه الأبيض الناصع مدَّد الله خطاه ومدَّ في عمره الغالي ليسير بسفينة الأزهر بما عهد فيه من إخلاص وبذل حتى يؤدي الأزهر رسالته على أتم وجه الأكمل ، ولفضيلته من عطف حضرة صاحب الجلالة ملكنا المحبوب فاروق الأول ما يمكنه من توجيه الأزهر وجهة صالحة في هذا العصر الذري. ولان « ٤٠٠ مليون مسلم » في جميع بقاع الارض أصبحت في فضيلة الأستاذ إمامهم جميعاً، وما يقرب من « ١٠ » ألف طالب من طلاب الازهر الكل قد عقدوا أملهم عليك يا فضيلة الاستاذ في تنقية الدين مما علق به من أوشاب، وفي أن يسام الازهر بنصيب موفور في نشر العلم وخدمة الانسانية والسلام. وأني على ثقة وقد أخلص الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده في الثناء اليك ومتع روحه الطاهرة بغراسته فيك في بدايتك ، على ثقة من أنك ستجمع قومك على الهداية للحق بفضل إخلاصك اليه .

* * *

كان الأزهر في أول عهده يتولى شئونه رجل يسمى مشرفاً ومعه أربعة قومة . وفي عهد المماليك كان يتولى أمره رجل من كبار الموظفين يسمى ناظراً منهم : الأمير ، الطواشي بهادر المقدم على المماليك السلطانية ولي نظره في سنة ٧٨٤ هـ . وهو الذي نظم مرسوم السلطان الملك الظاهر برقوق الخاص بجعل أبناء الأزهر أميراً واحداً يرث بعضهم بعضاً إذا مات أحدهم ولم يكن له وارث شرعي .

ومنهم الأمير صودون القاضي حاجب الحجاب ولي نظره سنة ٨١٨ هـ . وهو الذي طرق الجامع بعد العشاء في ليلة صيف . وكانت العادة قد جرت بمبيت كثير من الناس فيه ما بين تاجر وفقيه وجندي وغيرهم ، منهم من يقصد بمبيته البركة ، ومنهم من لا يجد مكاناً يأويه ، ومنهم من يستروح بمبيته هناك خصوصاً في ليالي الصيف وليالي شهر رمضان حتى يمتلىء صحنه وأكثر رواقاته ، فقبض على جماعة منهم وضربهم . وكان قد جاء معه من الأعوان والغلمان وغوغاء العامة ومن يريد النهب جماعة كل بمن كان فيه أنواع البلاء ووقع فيهم النهب ، فأخذت فرشهم وعمائمهم، وقتشت أوساطهم ، وسلبوا ما كان مربوطاً عليها من ذهب وفضة . فعل هذا لما بلغه أن أناساً يبيتون به لأغراض غير شريفة [1]

(١) خطط المقريزي ج ٤ ص ٥٠ وما بعده.

استمرّ النظام على هذه الحال في الازهر يتولى شئونه العلماء ينتخب من كبار الموظفين . ولم يكن له رئيس علمي من أبنائه إلاّ في العهد التركي إبتداء من عام ١١٠٠ هـ. ويسمى شيخ الازهر وهم : —

شيوخ الازهر

١ — الشيخ محمد عبد الله الخرشي المالكي . توفى سنة ١١٠١ هـ . نسبة الى بلدة يقال لها أبو خراش من البحيرة . وكان كريم النفس ، ورعاً زاهداً ، وله شرح على متن خليل .

٢ — الشيخ محمد النشرتي ، مالكي ، توفى سنة ١١٢٠ وبعد موت الشيخ النشرتي هذا وقعت فتنة بالأزهر بسبب المشيخة والتدريس بالاقبغاوية ، أفترق فيها الطلبة فرقتين: فرقة تريد الشيخ احمد النفراوي . وأخرى تريد الشيخ عبد الباقي القليني، ولم يكن حاضراً بمصر. فتصدر الشيخ النفراوي للتدريس بالأقبغاوية فتمه القاطنون بها ، وحضر القليني فتعصب له جماعة النشرتي . وحضر أنصار النفراوي الى الجامع ليلاً مسلحين وأخرجوا جماعة القليني ، وكسروا باب الاقبغاوية وأجلسوا النفراوي مكان النشرتي ، فكبس جماعة القليني الجامع وقتلوا أبوابه وتضاربوا مع جماعة النفراوي فقتلوا منهم نحو العشرة وانفصلوا عن جرحى ، وانتهبت الخزائن وتكاثرت القناديل وانتهت هذه الحادثة بأن أمر الوالي بأن يلزم الشيخ النفراوي بيته،وتفي الشيخ عثمن الى بلده واستقر القليني في المشيخة .

٣ — الشيخ عبد الباقي القليني . مالكي . توفى سنة ١١٢٣هـ

٤ — الشيخ محمد عثمن . مالكي توفى سنة ١١٣٣ هـ وكان الشيخ عثمن هذا أغنى أهل زمانه بين أقرانه

٥ — الشيخ ابراهيم موسى الفيومي. مالكي توفى سنة ١١٣٧ هـ وله شرح على العزية في الفقه في مجلدين .

وبعد الشيخ الفيومي انتقلت المشيخة الى الشافعية فتولاها .

٦ — الشيخ عبد الله الشبراوي . شافعي « توفى سنة ١١٧١هـ » وكان عمدتاً عالماً في أصول الفقه . متكلماً ماهراً أديباً . وكان طلبة العلم في أيامه في غاية الادب والاحترام

وصار لأهل العلم في مدته رفعة ومقام ومهابة عند الخاص والعام . ولم يزل يُملي ، ويدرس ، ويفيد حتى صار إماماً عظيماً . وكان مقبول الشفاعة ، وهاداه الأمراء ، وعمر داراً عظيمة على بركة الازبكية بالقرب من الرويعي . ومن آثاره « شرح الصدر في غزوة بدر » و « مفاتح الالطاف في مدائح الاشراف ».

وهو ديوان يحتوي على غزليات وأشعار ومقاطيع وقد ذهب الجبرتي وغيره الى أن مفاتح الألطاف هذا كتاب غير الديوان وليس كذلك فانه يقول نفسه في مقدمة الديوان « وسميته مفاتح الألطاف .... » وهو القائل [1] لهذه القصيدة العذبة التي تسيل عذوبة ورقة المشهورة على ألسنة بعض المغنين :

بحقك أنت المنى والطلب ... وأنت المراد وأنت الأرب
ولي فيك يا هاجري صبوة ... تحيّر في وصفها كل صب
أبيت أسامر نجـــم السما ... إذا لاح لي في الدجى أو غرب
وأعرض عن عاذلي في هواك ... إذا نمّ يا منيتي أو عتب
أمولاي بالله رفقاً بمن ... إليك بذل الغرام انتسبْ
فاني حسيبك من ذا الجفا ... ويا سيدي أنت أهل الحسب
ويا هاجري بعد ذاك الرضا ... بحقك قل لي لهذا سبب
فاني محبٌّ كما قد عهدت ... ولكن حبك شيء عجب
متى يا جميل المحيا أرى ... رضاك ويذهب هذا الغضب
أشاع العذول بأني سلوت ... وحقك يا سيدي قد كذب
ومثلك ما ينبغي أن يصد ... ويهجر صبًّا له قد أحب
أشاهد فيك الجمال البديع ... فيأخذني عند ذاك الطرب
ويعجبني منك حسن القوام ... ولين الكلام وفرط الأدب
وحسبك أنك أنت المليح الكريم الجدود العريق النسب
أما والذي زان منك الجبين ... وأودع في اللحظ بنت العنب
وأنبت في الخد روض الجمال ... ولكن سقاه بماء اللهب
لئن جدت أو جرت أنت المراد ... وما لي سواك مليح يحب

(١) « ديوان الشبراوي » ص ٨ ، ٩

٧ — الشيخ محمد بن سالم الحفني الخلوتي شافعي توفي سنة ١١٨١هـ كان عابداً

٨ — الشيخ عبدالرؤوف السجيني نسبة الى سجين قرية من مديرية الغربية توفي سنة ١١٨٢هـ

٩ — الشيخ احمد بن عبد المنعم الدمنهوري نسبة الى دمنهور توفي سنة ١١٩٠هـ

١٠ — الشيخ احمد العروسي شافعي » » ١٢٠٨هـ

كان قد حصل خلاف شديد بين العروسي والعريشي . واضطرابات بين الطلاب .

يروى أن الشافعية اجتمعوا وعلى رأسهم الشيخ العروسي والشيخ السمنودي والشيخ حسن الكفراوي بعد تولية الشيخ العريشي وكتبوا عريضة للأمراء مضمونها أن تكون المشيخة لشافعي واتفقوا على تعيين الشيخ العروسي. ولما لم يقبل هذا الطلب ركبوا بأجمعهم ومعهم الشيخ الجوهري الى الامام الشافعي وباتوا بالجامع ليلة الجمعة وأخيراً طلبوا من مراد بك طلبات قائلين له ان البلد بلد الامام الشافعي وقد ذهبنا اليه وهو يأمرك بتنفيذ هذه الطلبات فان خالفت يخشى عليك[1] فأحضروا فروة وألبسوها العروسي فأصبح شيخاً للازهر. وهو من منية عروس قرية من مركز اشمون جريس

١١ — الشيخ عبد الله الشرقاوي شافعي توفي عام ١٢٣٧هـ

وكان عهده من أكثر العهود اضطراباً وفيه كانت الحملة الفرنسية ويعتبر من أعظم الشيوخ الذين أخذوا هذا المنصب ، وهو من الطويلة قرية صغيرة جهة العرين من مديرية الشرقية ، وبعده انقسم الشيوخ ، فبعضهم اختار الشيخ المهدي الكبير وكان شيخاً بالاسم لأنه لم يصدق على مشيخته وسرعان ما خلفه

١٢ — الشيخ محمد الشنواني من شنوان قرية بالمنوفية: كان شافعي المذهب وكان درسه بالجامع المعروف بانفا كهاني بجوار مكناه بخشتدم ، وكان مهذب النفس مع التواضع والانكسار والبشاشة لكل أحد من الناس . وكان يشمر ثيابه ويخدم نفسه ويكنس الجامع ويسرج القناديل . ولما اختاروه للمشيخة هرب الى مصر العتيقة فأحضروه قهراً عنه وتلدوه

(١) هذه الطلبات كانت عبارة عن فروة للشيخ العروسي وكبود شيخاً على الشافعية وكبود الشيخ العريشي شيخاً على الحنفية والشيخ البرديسي شيخاً للمالكية « الخطط الجديدة لعلي مبارك باشا ص ٣٢ ج ٤ »

المشيخة ولم يترك ملازمة الجامع الفاكهاني كعادته ، وأقبلت عليه الدنيا فلم يحفل بها . وكان يتطل بالمرض أشهراً ثم انقطع في داره الى أن توفي رحمة الله عليه وصلي عليه في الجامع الازهر في مشهد رهيب، ودفن بتربة المجاورين. وكان يجيد حفظ القرآن ويقرأ مع فقهاء « الجوقة » في الليالي،وله حاشية مشهورة على شرح الشيخ عبد السلام على الجوهرية

١٣ — الشيخ احمد العروسي توفي عام ١٢٤٥ هـ

١٤ — الشيخ احمد بن علي الدمهوجي توفي عام ١٢٤٦ هـ نسبة الى دمهوج قرية قرب بنها

١٥ — الشيخ حسن بن محمد العطار توفي عام ١٢٥٠ هـ

كان أبوه عطاراً له إلمام بالعلم وكان يستخدم ابنه هذا في صغار شئون الدكان ويعلمه البيع والشراء فاختلف الى الجامع الأزهر خفية عن أبيه حتى قرأ القرآن وجدَّ في التحصيل على كبار المشايخ كالشيخ الصبان والشيخ الأمير . ولما دخل الفرنسيون مصر فرَّ الى الصعيد كجماعة من العلماء . ولما رجع اتصل بهم فكان يستفيد منهم ويفيدهم اللغة العربية وكان يقول : ان بلادنا لا بدَّ أن تتغير أحوالها وتتجدد بها من المعارف ما ليس فيها ويتعجب مما وصلت اليه تلك الأمة من المعارف والعلوم وكثرة كتبهم وتحريرها وتقريبها لطرق الاستفادة ثم ارتحل الى الشام وكان يقول الشعر دون اهتمام به كما هو عادة كثير من العلماء . ومن شعره :

أني لأكره في الزمان ثلاثة ما إن لها في عدّها من زائد
قرب البخيل وجاهلاً متفاضلاً لا يستحي وتردداً من حاسد
ومن البلية والرزية أن ترى هذي الثلاثة جمّعت في واحد

وارتحل الى بلاد الروم وأقام بها مدة وتأهل بها ثم عاد الى مصر وعقد مجلساً لقراءة تفسير البيضاوي كان يحضره أكابر المشايخ .

وكان عزيز مصر المغفور له محمد علي باشا يجله ويعظمه ويعرف فضله وله تآليف عديدة منها :

١ — حاشية على جمع الجوامع نحو مجلدين .

٢ — حاشية على الأزهرية في النحو .

٣ — حاشية على متولات السجاعي .

٤ — حاشية على السمرقندية .

وله رسائل في الطب ، والتشريح ، والرمل ، والزايرجة وكان يرسم بيده المزاول النهارية والليلية .

١٦ — الشيخ حسن القويسني نسبة الى قويسنا توفي سنة ١٢٥٤ هـ
كان مع انكفاف بصره سهيباً جداً عند الأمراء وغيرهم .

١٧ — الشيخ احمد الصائم السفطي نسبة الى سفط العرفاء قرية جهة الفشن بمديرية المنيا توفي سنة ١٢٦٣هـ

١٨ — الشيخ ابراهيم الباجوري من الباجور بمديرية المنوفية توفي سنة ١٢٧٧هـ .
كان قوياً في علمه ضعيفاً في ادارته وكان المرحوم عباس باشا الأول يزوره في دوسه وبعد موته بقي الأزهر مدة بلا شيخ بل بمجلس مؤلف من أربعة وكلاء تحت رياسة الشيخ مصطفى المروسي، وهم : الشيخ العدوي المالكي، والشيخ الحلبي الحنفي، والشيخ خليفة القاشني، والشيخ مصطفى الصاوي الشافعيان . وكان هذا المجلس قد ألف لمباشرة أمور الأزهر بعد أن ضعف الشيخ الباجوري وكثرت حوادث الأزهر ولما كانت سنة ١٢٨١ هـ تقلد المشيخة

١٩ — الشيخ مصطفى المروسي كأبيه وجده الى عام ١٢٨٧ هـ . ولقد أبطل الشيخ المروسي كثيراً من البدع كالشحاذة بالقرآن وعزم على ادخال الامتحانات بالأزهر فتاجأه العزل عن المنصب فنفذها خلفه .

٢٠ — الشيخ محمد العباسي المهدي الحنفي . وهذا أول انتقالها للحنفية فسار فيها سيراً حسناً ودان له الخاص والعام من أهل الأزهر وقلت على يده الشرور فيه وكثرت في عهده المرتبات. وكان الخديوي اسماعيل يؤيده تأييداً قوياً وتقهقر وقتاً ما أمام الشيخ الامبابي في فتنة سنة ١٢٩٩ هـ ولكن سرعان ما عاد الى منصبه وظل فيها الى ٣ ربيع الأول سنة ١٣٠٤ هـ . فخلفه .

٢١ — الشيخ محمد الامبابي وكان خصماً قوياً لكل تجديد . وفي عام ١٣١٣هـ تراك منصبه فخلفه .

٢٢ — الشيخ حسونة النواوي الحنفي المتوفي سنة ١٩٢٥ ثم خلفه

٢٣ — الشيخ عبد الرحمن النواوي الحنفي في عام ١٣١٧هـ فتوفي بعد وقت قصير فخلفه

٢٤ — الشيخ سليم البشري المالكي وفي عام ١٣٢٣هـ خلفه

٢٥ — الشيخ عبد الرحمن الشربيني، واستقال سنة ١٣٢٧هـ فعاد الى المشيخة

٢٦ — الشيخ حسونة النواوي للمرة الثانية ، واستقال في السنة نفسها فتولاها مرة ثانية
٢٧ — الشيخ سليم البشري، ولما توفي سنة ١٣٢٥هـ تولاها
٢٨ — الشيخ محمد أبو الفضل الجيزاوي الى سنة ١٣٤٦هـ ، ثم خلفه
٢٩ — الشيخ محمد مصطفى المراغي ، الى أن استقال في سنة ١٣٤٨ هـ ، فالشيخ
٣٠ — محمد الاحمدي الظواهري ، « توفي في ١٣ مايو سنة ١٩٤٤ » وعاد اليها
٣١ — الشيخ محمد مصطفى المراغي للمرة الثانية

نلاحظ أن الحنابلة لم يتعين أحد منهم شيخاً للازهر في تاريخه، وذلك راجع لقلتهم وأن النزاع قام على أشده غير مرة بسببها .

الشيخ محمد مصطفى المراغي

ولد الشيخ محمد مصطفى المراغي في اليوم التاسع من شهر مارس سنة ١٨٨١ في المراغة من أعمال مديرية جرجا بصعيد العليا وحفظ القرآن الكريم بمكتب القرية وتلقى على أبيه بعض العلوم ثم التحق بالازهر ، واتصل بالأستاذ الامام الشيخ محمد عبده فتلقف نفسه عليه في دروس التفسير التي كان يلقيها بالرواق العباسي ، وأخذ العالمية من الدرجة الثانية في سنة ١٩٠٤ ، وفي اغسطس من هذه السنة جلس للتدريس بالأزهر ولم يطل به المقام بل عين في نوفمبر من السنة نفسها قاضياً لمديرية دنقلا بحكومة السودان ، ثم قاضياً لمدينة الخرطوم، وفي سنة ١٩٠٧ استقال عائداً الى مصر لخلاف بينه وبين أولي الأمر فيها، فعين مفتشاً للدروس الدينية بديوان عموم الاوقاف ، وفي الوقت نفسه عاد للتدريس في الجامع الأزهر . وفي سنة ١٩٠٨ عاد الى السودان قاضياً لقضائها بأمر صدر من خديوي مصر. وفي سنة ١٩١٩ عين رئيساً للتفتيش بالمحاكم الشرعية، ثم رئيساً لمحكمة مصر الكلية، ثم مستشاراً في المحكمة العليا، ثم رئيساً لها في ١١ من ديسمبر ١٩٢٣ وهو الذي وضع أساس القانون رقم ٤٩ لسنة ١٩٣٠ ووصل الثقافة الاسلامية بالثقافات الغربية برساطة بعوث أرسلها من أبناء الأزهر الى بعض جامعات أوربا . وأبرز ميزة كانت في الاستاذ المراغي عليه رحمة الله هي اعتزازه بكرامته وكان بها محترماً في جميع الأوساط . وأصدق وصف لهمته من حضرة صاحب المعالي أستاذنا الجليل أحمد زكي السيد باشا يوم شيعنا جنازة الشيخ قال : كان عليه رحمة الله منسجماً في كل شيء ، عقله يوازي علمه حتى جسمه وهندامه » .

طلبة الازهر

ابتدأ الأزهر حياته العلمية في عهد العزيز بالله ابن المعز لدين الله بـ ٣٥ طالباً ، ويقدم لنا المقريزي إحصاءً يرينا أنهم بلغوا في عهد ناظره الأمير سودوب سنة ٨١٨ هـ (٧٥٠) طالباً ما بين مصريين وعجم وزيالعة . ويقدّم لنا علي مبارك باشا إحصاءً عن عدد الطلبة والمدرسين في سنة ١٧٩٣ م . بيانه كالآتي : —

٢٣٥ شيخاً ، منهم ١٤٧ شافعيًّا ، و١٩ مالكيًّا ، و ٧٦ حنفيًّا و ٣ حنابلة .

و١٠٧٨٠ طالباً، منهم ٣٦٥١ شافعيًّا ، و٣٨٢٦ مالكيًّا . و١٢٧٨ حنفيًّا، و٢٥ حنبليًّا.

وتقدم لنا دائرة المعارف الاسلامية إحصاء عن سنة ١٩٠١ ، ١٩٠٦ كالآتي : —

سنة	شيوخ	طلبة
١٩٠١	٢٥١	١٠٤٠٣
١٩٠٦	٣١٢	٩٠٦٩

ويبلغ عدد الطلبة الآن في سنة ١٩٤٥ — سنة ١٩٤٦ (١٤٧١٤) بيانهم كالآتي : —

كلية اللغة العربية ١١٦٢ : في القسم العالي ٦٠١، وفي إجازة التدريس ٥٣٢، وفي تخصص المادة ٤٠

كلية الشريعة ٨٧٣ : في القسم العالي ٧١١ ، وفي إجازة القضاء الشرعي ١٢٢، وفي تخصص المادة ٤٠

كلية أصول الدين ٥٣٨: في القسم العالي ٤٢٥، وفي أجازة الوعظ ٦٧، وفي تخصص المادة ٤٦

طلبة المعاهد الدينية الملحقة بالأزهر ١٠٤٠٧ بيانهم كالآتي :

٢٤٨٣ القاهرة، ١٨٥٧ الزقازيق ، ١٨٥١ طنطا ، ١٢٤٦ فؤاد الاول بأسيوط ، ٨٥٩ شبين الكوم ، ٧٩٦ اسكندرية ، ٥٢٠ قنا ، ٤١٤ دسوق ، ٤٠٨ دمياط

منهم في الابتدائي ٥٧٢٩ ، والثانوي ٤٦٧٨

٨١٤ عدد طلبة الأقطار الشقيقة وغيرهم من مختلف البلدان الاخرى وأكثرهم في كليات اللغة وفي معهد القاهرة وفي القسم العام

٨٠٥ الطلبة المصريون في القسم العام بالقاهرة

٣٥ عدد طلبة القسم العام في معهد طنطا

١٤٧١٤ الجملة — ولو قسمنا ميزانية الازهر على عدد الطلاب لكانت النتيجة أن كل طالب يتكلف مبلغ ٢ر٤٧ ج تقريباً

خريجو الازهر في سنة ١٩٤٥ — ١٩٤٦

عدد	
٣٨	عالمية من درجة أستاذ
٢٢٢	عالمية مع اجازة التدريس
١٠٦	عالمية مع اجازة القضاء الشرعي
٣٥	عالمية مع اجازة الدعوة والارشاد
٤٠١	الجملة

ميزانية الازهر

أول مقدار مالي ثابت يمكن الابتداء منه في ميزانية الأزهر وقفية الحاكم بأمر الله التي وقفها في سنة ٤٠٠ هـ عليه وعلى جامع المقس والجامع الحاكمي ودار العلم وكان صافي هذه الوقفية المشتركة يقسم على ستين سهماً للازهر فيها — على حد تعبير الوقفية — الخمس والثمن ونصف السدس ونصف التسع .

وهذه الوقفية تعطينا فكرة عن حياة الأزهر في ذلك العصر . لذلك ننشرها :

دينار	
٨٤	للخطيب
١٠٨	ثمن ١٣٠٠٠ ذراع حصر مضفورة لفرش هذا الجامع في كل سنة عند الحاجة وثمن ١٠٠٠ ذراع حصر عبدانية تكون عدة عند الحاجة
١٢ ٣/٤	لما ينقطع من حصره
١٢ ٣/٤	ثمن ثلاثة قناطير زجاج وفراخها
١٥	ثمن عود هندي للبخور في شهر رمضان وأيام الجمع مع ثمن الكافور والمسك وأجرة الصانع
٧	ثمن نصف قنطار شمع

دينار

٥ لكنس الجامع ونقل التراب وخياطة الحصر وثمن الخيط وأجرة الخياطة

١ ثمن مشاقة لسرج القناديل

½ ثمن فحم للبخور عن قنطار واحد .

¼ ثمن ملح للقناديل

½ ثمن صلب ليف وأربعة أحبل وست دلاء

½ ثمن خرق لمسح القناديل

١ ¼ ثمن ١٠ قفاف للخدمة و١٠ أرطال قنب لتعليق القناديل وثمن ٢٠٠ مكنسة لكنس هذا الجامع .

٣ ثمن أزيار فخار مع أجرة حمل الماء .

٣٧ ¾ ثمن زيت وقود هذا الجامع راتب السنة ١٢٠٠ رطل مع أجرة الحمل .

٥٥٦ ½ لأرزاق المصلين يعني الأئمة وهم ثلاثة . وأربعة قومة و١٥ مؤذناً منها لكل امام ديناران وثلثا دينار وثمن دينار في كل شهر من شهور السنة . والمؤذنون والقومة لكل رجل منهم ديناران في كل شهر .

٢٤ للمشرف على هذا الجامع في كل سنة .

١ لكنس المصنع بهذا الجامع ونقل ما يخرج منه من الطين والوسخ .

٦٠ لمرمة ما يحتاج اليه هذا الجامع .

٨ ¾ ثمن ١٨٠ ½ حمل بن جارية لعلف رأسي بقر المصنع الذي لهذا الجامع .

٤ لمخزن يوضع فيه التبن بالقاهرة .

٧ ثمن قدادين قرط لرأسي البقر المذكورين في السنة .

١٥ ½ لأجرة متولي العلف وأجرة السقاء والحبال والقواديس وما يجري مجرى ذلك .

١١ لأجرة قيم المبيضأة « ان عملت بهذا الجامع » .

٢٤ لمؤنة الناس والسلاسل والتنانير والقباب التي فوق صطح الجامع .

وفي عام ١٨٧٥ م بلغ الايراد السنوي ٢٧٥٦٤٦١٤ غرشاً تركيًا . وبلغ المنصرف ٣٩٠٨٤٤٢٨ غرشاً . وورد في تقرير رسمي أن جملة ايراد عام ١٨٩٢ كان ٤٣٨٢ جنيهاً انجليزيًا وأن الجراية اليومية كانت ١٠٠٠٠ رغيفاً .

وايراد عام ١٩٠١ ـ ١٩٠٢ م كان ١٤٠٠١ جنيهاً انجليزيًا . بيانه كالآتي :

٦٦١١ جنيهاً قيمة الاعانة التي تدفعها وزارة المالية و٥٧٥٧ جنيهاً من ديوان الأوقاف و ١٦٣٢ جنيهاً ايراد الأروقة المختلفة .

وكانت الجراية التي تصرف يوميًا ١٣٥١٠ رغيفاً

وميزانيته لسنة ١٩٤٠ ـ ١٩٤١ م بلغت ٣٤٢٦٠٠ جنيهاً مفردة كالآتي :

جنيه		جنيه
٣٤٢٦٠٠	الايرادات	٢٦٢٠٦ أوقاف الأزهر والمعاهد
		٢١٢٠٨ اعانة وزارة الأوقاف
		٢٧٣٦٠٤ من المالية
		٢١٤٩٢ ايرادات أخرى

وبلغت الميزانية في سنة ١٩٤٤ ـ ١٩٤٥ مبلغ ٦٩٥٧٨٠ جنيه مفردة كالآتي : ـ

٣٨٤٠٠٠	ماهيات ومرتبات
١٧١٦٧٣	مصروفات عمومية
٩١٠٠	أعمال جديدة
٦٠٠٧	نشر الثقافة الاسلامية في البلاد النائية والعناية بالبعثات الوافدة الى الأزهر
١٢٥٠٠٠	اعانة غلاء المعيشة

مكتبة الازهر

أنشئت سنة ١٨٩٧ وابتدأت بـ٧٧٠٣ كتاباً منها ٦٦١٧ بطريق الاهداء و١٠٨٦ بطريق الشراء وعدد فنونها يومئذ ٢٧ فنًّا وهي : المصاحف . القراءات . التفسير الحديث . الأصول . النحو . الصرف . البلاغة . الفقه على المذاهب الاربعة . المجاميع . التوحيد . المنطق . التاريخ . التصوف . الأدب . المديح . الآداب والمواعظ والفضائل . الاحزاب والأوراد والأدعية . الوضع . آداب البحث . العروض . الفلك . الميقات . مصطلح الحديث . الفنون المتنوعة . الحساب والهندسة . اللغة . الطب . وبلغت فنونها في سنة ١٩٤٣ ـ ٥٨ فنًّا وبلغ عدد مجلداتها ٩٠٠٧٥ مجلداً موزعة كالآتي :ـ

الفن	العدد	الفن	العدد	الفن	العدد
المصاحف	٣٩٤٤	الأدب	٥٩٨٤	اللغات التركية	٢٣٠
علوم القرآن	١٠٠	اللغة	١١٨٢	املاء وخط	١٠٠
القراءات	١٣٧٧	التصوف	١١٨٨	صور ورسوم	١٣٤
التفسير	٥٢٧٧	التاريخ	٥٠٨٦	كيمياء وطبيعة	١٢٢
الحديث	٨٦٢٤	المنطق	١٤٩٩	التجارة	١٩
المصطلح	١٠٣	فنون متنوعة	٣١٢٢	الهندسة	٦٧
الأصول	٣٤٩٤	الأدعية والأوراد	١١٢٧	الجبر	٣٤
الفقه العام	٩٦٤	الحكمة والفلسفة	٤٦٦	الزراعة	٦٦
فقه حنفي	٦٩٤٨	الفلك	٤٢٨	حكمة التشريع	٢٥
فقه شافعي	٤٨٧٩	تقويم البلدان	٣٠٣	اقتصاد سياسي	٦٧
فقه مالكي	٤١٣٠	القوانين واللوائح	٦٤١	هيئة	٢٠
فقه ابن حنبل	١٦٩٨	الحساب	٥٠٥	فراسة وكف	١٧
فقه الشيعة	٢٧	الطب	٦٣٢	تعبير الرؤيا	٥٤
المجاميع	١٥٩٣	الميراث	٦٣٣	شرائع غير اسلامية	٤٧
التوحيد	٣٨٣٨	أخلاق وتربية واجتماع	٦٤٦	طبوغرافيا	٣
البلاغة	٢٥٥٤	أدب البحث	٢٣٧	محفوظات	٦٣٩٥
النحو	٤٥٣١	العروض	١٥١	موسيقى	٧
الصرف	٩٨١	الوضع	١٤١	مسك دفاتر	٣
الآداب والفضائل	١٨٢٩	اللغات الاجنبية	٢٧٢	حرف ورمل	٥٠

وفي المكتبة نوادر قل أن توجد في مثلها فمن المصاحف قطعتان من مصحف مخطوطتان سنة ٤٦٥ هـ.

وفي القراءات «الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة كتب في سنة ٥٥٧ هـ.

وفي التفسير: تفسير غريب القرآن السجستاني كتب سنة ٥١٤ هـ.

وفي الحديث: غريب الحديث لأبي عبد القاسم بن سلام المتوفي سنة ٣١١ هـ.

وفي فقه أبي حنيفة: عمدة الطالبين لعبد الباسط الشهير بابن الوزير بخط المؤلف سنة ٦٠٣ هـ.

وفي التاريخ: رسوم دار الخلافة لأبي الحسين بن الحسن الهلالي كتب ٤٥٥ هـ.

وأنفس المكتبات الخاصة بالمكتبة الأزهرية مكتبة سليمان باشا أباظه وقد أهداها ورثته الى الأزهر في سنة ١٨٩٨ م عملاً بمشورة الأستاذ الامام محمد عبده. ويستأثر فنا التاريخ والأدب بغالب كتبها وتمتاز بكثرة المخطوطات وعدد مجلداتها ١٤٨٤ مجلداً وبها جملة طيبة من مطبوعات أوربا. والمكتبة الازهرية العامة من أشهر المكاتب في العالم وهي ثانية دور الكتب في مصر من حيث عدد ما فيها من الكتب وخاصة من الكتب النادرة [1]

(١) اقتبست هذا الايجاز من كتاب الفهرس الذي وضعه الاستاذ الشيخ عبد الرؤوف الزراعي أمين المكتبة

الاتجاه الحديث للأزهر

وكيف ينبغي أن يكون

إن رسالة الأزهر بوصف كونه جامعة دينية رسالة روحية تهدف أولاً وقبل كل شيء إلى إحياء القيم الروحية، وتوليد الميول النافعة في الانسان وقمع الميول الفاسدة فيه، فغايته من التعليم غاية خلقية، ومقياسه الذي ينبغي أن يكون هو الخلق لا العلم، فقيمة المرء خلقه لا علمه، وعدته التي تؤهله للنجاح في الحياة في خلقه لا في علمه، ولا يختلف اثنان في أن الرجل ذا الهمة، والاخلاص، والثبات، والاعتماد على النفس، أنفع للجمعية الانسانية من ألف رجل ورجل جردت نفوسهم من هذه الصفات، وإن ملئت عقولهم بشتى المسائل والنظريات ولست أقصد من ذلك أن يوجه الأزهر كل جهوده إلى تربية النفوس فحسب، وترك العقول فارغة من العلم، كلا فلا بد للأزهر من الطريقين طريق الدين وطريق العلم، وإنما أقصد أن طريق الدين هو الأصل، وينبغي أن يكون دائماً هو الأصل، والثاني تابع أو خادم للطريق الأول. فان المعتقدات الدينية إذا كانت تقود الأفكار والمشاعر وتهدي المرء في حركته إلى الخير، وتمنع الأمم من الوقوع في الهمجية، وتربط بين أفرادها برباط الانسانية، فان العلم يقرر الحقائق ولا غنى للرجل الكامل عن الطريقين كليهما.

وإذا كان الأزهر في الماضي قد أدى رسالته على نحو يتفق مع ذلك العصر فهل هو يؤديها الآن على النحو الذي ينبغي أن يكون؟

ننظر إلى واقع الأمر فيه. فهل هو أولاً أرضى أبناءه فاطمأنوا اليه وركنوا إلى وضعه الحالي فبشروا بجيل له ميول ناهضة، ينكر ذاته ولا يخدع نفسه، ويتخذ الصبر، والتعاون والاستقلال سبيلاً للنجاح في هذه الحياة. أم هم غير راضين عن حياتهم التي يحيونها فيه الآن على هذا النحو؟

قلت شبه استفتاء بين الطلاب في هذه المسألة، فكان إجماع منهم على أنهم غير راضين عن هذه الحياة. وبذا لا الأزهر أولا يشكون في المقابل هذه الحياة، أو هم يشعرون بأنهم

أقل من غيرهم قيمة في سوق هذه الحياة ، ومن الشك في المقابل لهذه الحياة نبتت فكرة المطالب التي يتقدمون بها بين آونة وأخرى الى ولاة الأمور في الأزهر وفي غير الأزهر يقصدون من ورائها فتح وظائف جديدة يهجرون من أجلها الدراسة بين آن وآخر . ويؤلمني أن أصرح أن هذه المطالب كلها مادية حتى المطلب الخاص منها بتعليم الدين في المدارس يشفعونه بأن تقوم فرقة معينة بتدريسه . وهنا أحب أن أقول للطلاب ان مهمة الأستاذ والطالب التعاون في سبيل الحقيقة وهذه حقيقة . وليس الذنب ذنب الطلاب في هذا الاتجاه المادي لأن واقع الأمر أن سياسة التعليم من جهة ، والظروف المحيطة بالفرد من جهة أخرى جعلت طلب العلم للعلم أصبح الآن غير موجود اللهم إلاّ لشخص اطمأن على الظروف المحيطة به في هذه الحياة أو لشخص موهوب وليس الكل هذا أو ذاك .

من الناس من يقول : إن طلبة الأزهر في سنة ١٩٠١ كانوا ٣٠٠٤ وميزانيته في هذه السنة نفسها كانت ١٤٠٠١ جنيهاً انجليزياً . وطلبته الآن حسب احصاء نوفمبر سنة ١٩٤٥ ١٤٧١٤ وميزانيته في هذه السنة ١٩٤٥—١٩٤٦ بلغت ٦٩٥٧٨٠ جنيهاً مصرياً . فكيف لا يرضى الأزهريون عن هذه الحياة مع هذا التقدم المادي . أليس طلبة الازهر فيما مضى كانوا أكثر رضا منهم اليوم ؟ يقولون هذا ويشفعونه بأن الازهر سوف لا تنقضي له مطالب ما دام يقبل من الطلاب أكثر من العدد المطلوب للوظائف التي يغذيها . مثلاً خرّج الازهر في (سنة ١٩٤٤ — ١٩٤٥) ٤٠١ يحملون عالمية مع درجة أستاذ . وعالمية مع إجازة التدريس . وعالمية مع اجازة القضاء الشرعي . وعالمية مع اجازة الدعوة والارشاد . فهل الوظائف التي يغذيها الأزهر تحتاج لمثل هذا العدد سنوياً ؟ الواقع لا . ومعنى هذا إنا في جيل واحد نخرج جيشاً من المتعطلين يكون مصدر قلق لأولي الأمر في الأزهر وفي غير الأزهر ، بل مصدر قلق لهم ولغيرهم جميعاً ، يقولون هذا وفاتهم ان هذه المقارنة أولاً لا تصح لأن الظروف التي تحيط بالفرد الآن ليست هي الظروف التي كانت تحيط بزميله فيما مضى .

على أن هذا النمو في ميزانية الأزهر ليس مقصوراً عليها وحدها بل مع هذا النمو لا يزال الاستاذ في كليات الأزهر في الدرجة الخامسة وما دونها ومنهم القليل في الدرجة الرابعة بينما الأستاذ المدني زميله في غير الأزهر في الدرجة الأولى أو درجة مدير عام .

ثانياً : وأما أن الأزهر يأخذ أكثر من العدد اللازم للوظائف التي يغذيها فمن هنا تأتي أكبر فائدة له .ذلك أنه يؤمه كثيرمن لم يستطيعوا الالتحاق على أنفسهم في المدارس التي تدمت ميزة المال . أما هو ففتح لمن حرمها صدره لتعليمه لهم حسنة من حسناته التقليدية فهو بذلك دائب العمل على التقريب بين الغني والفقير لأنه يرتفع بطبقة الى طبقة أخرى تليها ولو لم يكن للأزهر إلاّ أنه يخدم الأمة بهذه الحركة لكفاه بها فخراً فهو دولاب عمل متحرك للتقريب بين الطبقات .

ويعلل الطلاّب أيضاً عدم رضاهم عن هذه الحياة التي يحيونها الآن في الازهر على هذا الوضع بأن أساليب بعض الكتب الازهرية التي يقرر عليهم دراستها والتي هي مصادرهم فيما يدرسون ويقرأون أصبحت لاتلائم روح هذا العصر ، ذلك أنها تعني أول ما تعني وتقصد أول ما تقصد صناعة لفظية الغرض منها حل تراكيب الجمل وما تعطيه هذه الجمل وفهم الالفاظ وما تعطيه هذه الالفاظ . والبعد في التأويل ، والتعليل ، والاعتراض ، والجواب الى حد بعيد ولم يعد هناك وقت يحتمل أن يتسع في هذا الاخذ والرد ، وهذا الجدل والنقاش الذي لاطائل تحته ولا فائدة منه . ولست معهم في هذا التعليل على إطلاقه . فهذه الصناعة اللفظية هي ميزة الازهر ، وينبغي أن تظل ميزة الازهر على شرط أن تكون وسيلة لا غاية . فان هذه التي يسمونها الصناعة اللفظية تخرج رجلاً دقيقاً بكل معنى الدقة عند تخير الالفاظ ، قوياً بكل معنى القوة على استنباط المعاني ، قادراً على النقاش والجدل ، فهي من هذه الناحية أعتقد أنها تكون ملكة إذا مستها العلوم الحديثة كانت ملكة جبارة نادرة المثال ، إنما الذي ينبغي أن يعلل به شكوى الطلاب من هذه الكتب هو أن بعض مؤلفيها رضوان الله عليهم قد غلوا في هذه الناحية التي يسمونها الصناعة اللفظية ، وتأثروا في كتبهم بأشياء أصبح لا يقرها هذا العصر ، وان عرض ما فيها من معلومات هو بأسلوب فيه روح العصور الماضية ولكل عصر روح . ولعلّ ذلك كان هو الباعث للأستاذ الامام الشيخ محمد عبده على كلمته المشهورة في وصف هذه الكتب فقد قال :

« لا يمكن لهذه الامة أن تقوم ما دامت هذه الكتب فيها . ولن تقوم إلاّ بالروح التي كانت في القرن الأول ، وهي القرآن . وكل ما عداه فهو حجاب قائم بينه وبين العمل

والعلم [1] » والأمثلة كثيرة وكثيرة على هذا الذي ذهبنا اليه . خذ لذلك مثلاً .

كتاب السلم في المنطق للأخضري المتوفى سنة ٩٤١ هـ وهو كتاب يدرس لطلاب السنتين الأولى والثانية من القسم الثانوي تراه يأتي فيعقد فصلاً في جواز الاشتغال بالمنطق يقول فيه :

والخلف في جواز الاشتغال ... به على ثلاثة أقوال
فابن الصلاح والنواوي حرّما ... وقال قوم ينبغي أن يعلما
والقرلة المشهورة الصحيحة ... جوازه لكامل القريحة

ثم يأتي الملوي في شرحه على السلم فيقول في توجيه تحريم الاشتغال بالمنطق يقول في شرحه الصغير ما نصه : « ووجه تحريم هؤلاء — يشير إلى ابن الصلاح والنواوي — إياه انه حيث كان مخلوطاً بكفريات الفلاسفة يخشى على الشخص إذا خاض فيه أن يتمكن من قلبه بعض العقائد الزائغة كما وقع ذلك للمعتزلة » إذاً هو يعطي الطلاب فكرة سيئة عن المعتزلة ولماذا؟ لأنهم خاضوا في الفلسفة ولمن وأين يكون هذا الكلام في معهد أصبح يعطي أجازات عليا في الفلسفة وأصبح يرسل أبناءه الى أوربا للتخصص في الفلسفة . هذا كلام إن صحّ أن يقال في عصر المؤلف لا يصح أن يضيّع الطلاب فيه وقتهم الآن .

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن هذه الكتب قد ألفت وشرحت من زمن بعيد ونقل مؤلفوها عن بعضهم أخطاء أثبت البحث الحديث أو التأليف الحديث خطأها . مثلاً الشيخ عمر النسفي في كتابه العقائد النسفية وهو كتاب في التوحيد يدرس لطلبة كلية أصول الدين يقول في أول الكتاب « حقائق الأشياء ثابتة والعلم بها متحقق خلافاً للسوفسطائية » فيأتي سعد الدين التفتازاني شارح كتاب العقائد هذا فيقسم السوفسطائية إلى فرق ثلاث عندية ، وعنادية ، ولاأدرية ، ثم يأتي الخيالي ، وعبد الحكيم ، والعصام فيوافقونه على هذا التقسيم .

مع أن فرقة الشكيين المعبر عنها هنا باللاأدرية لم تكن من فرق السوفسطائية، ذلك أن الشك لم يكن كمذهب إلاّ من عهد بيرون أو فرنسن كما ينطق في اليونانية وكان يدعى

(١) تاريخ الاستاذ الامام للسيد رشيد رضا ج ٢ ص ٦٤٤

وسرغن الأليمي نسبة إلى بلده — ولد سنة ٣٦٠ وتوفي سنة ٢٧٠ ق م — نعم قال السوفسطائيون بالشك كما قال به الكابيون أيضاً ولكنه عرف عندهم كطريقة من طرق البحث لا كمذهب فلسفي فيبدأ الشك كمذهب بيرون . ولا أريد أن أستطرد في ضرب الأمثال فهي كثيرة وكثيرة في مختلف الكتب الأزهرية وبخاصة في كتب التفسير والفقه .

وفيما عدا هذا وذاك من الغلو فيما يسمونه الصناعة اللفظية ومن التأثر في هذه الكتب بروح غير روح هذا العصر سواء في طريقة عرض المعلومات أو في غيرها، فيما عدا هذا وذاك، فهذه الكتب ثروة لا تعادلها ثروة وكنز غني عرض ما فيه غيرنا بأسلوب جديد وروح جديد فنفعوا وانتفعوا وأفادوا واستفادوا وليس علينا في هذه الناحية إلا أن نجاري روح العصر فنعرض بضاعتنا بروح عصرنا نحن ، لا بروح عصورهم رضوان الله عليهم وجزاهم خير الجزاء

إن كتب الدين فيها كثير من الأوشاب التي علقت به وليست منه في شيء ، وعلينا تنقية هذه الأوشاب ليعيد الأزهر للدين جدته ويسره ، ويرفع عنه ذلك الحرج الذي نفر الناس منه أو كاد . إن القرآن الكريم الذي هو الأصل وهو الدوحة طغت عليه هذه الصناعة اللفظية ، وطغى عليه ذلك البعد في التأويل والتخريج . وهذه الناحية ناحية تنقية الدين مما علق به وليس منه ، وعرض بضاعتنا بأسلوب جديد وروح جديد يتمشى مع العصر ولا يتعارض مع ما ورثنا من عرف ، هذه الناحية هي ما ينبغي المبادرة بها والعمل على تنفيذها ليخرج الطالب وفيه روح عصره الذي يعيش فيه .

وهناك ناحية أخرى أضرت بالتعليم ضرراً بليغاً لا في الأزهر فحسب ، بل في الأزهر وفي غيره، تلك هي الظروف السياسية التي أحاطت بالطلاب في السنين الأخيرة ولا تزال تحيط بهم حتى الساعة .

إن اشتغال الطلاب بالسياسة ألهاهم عن علومهم الأمر الذي صح يشكو منه الكل أ . لا الأزهر فحسب . وهنا لا أقصد أن يحرم على الطلاب الاشتغال بالسياسة فهذا حق من حقوقهم ما دام لهم وطن يعيشون فيه . وانما أقصد أن أقول : إن تقاتل الأحزاب في ربع القرن الأخير جر الطلاب الى اقتحام ميدان الصراع الحزبي هذا الذي جر الى استخدامهم ، وممالأتهم ، وارضائهم حتى على حساب العلم ، فكانت النتيجة ما نسمع ونرى مما لا يحتاج الى اظهار ، انهم الا اظهار الأسى والأسف.

هذا ونبتت في الأزهر أخيراً ظاهرة أضرت بسير الدراسة فيه كل الضرر ، ونزلت بالمستوى العلمي الى حيث أصبح يشكو منه كل من يهمه أمر هذا المعهد ؛ تلك هي بدعة الامتحان في المقروء لا في المقرر،هذه الظاهرة أفسدت العلاقة بين الأستاذ والطالب،وعودت الطلاب الخروج على النظام بهجرهم الدروس قبل أن ينتهي العام الدراسي حتى لا يطول عليهم هذا المقروء . وبلغ من أمر هذه الظاهرة أن الطلاب أصبحوا يتضامنون على الأستاذ الذي لا ينزل على رغبتهم فيقف في مادته عند حد يعينونه له حتى أوشك الأمر أن ينقلب فوضى طاغية وأن يصير أمر الأزهر في غير أيدي أولي الأمر .

إن هذه الظاهرة يعترف الطلاب أنفسهم أنها نبتت في جو السياسة وهي من غير شك لم تكن لتعيش لولا هذا الجو . وهذه الظاهرة ليست في صالح الطلاب وإن بدا لهم في ظاهرها الرحمة،وهي طبعاً ليست بعد ذلك في صالح شيء ما . فمن مصلحة الطلاب ومن مصلحة العلم،ومن مصلحة الأخلاق أن يقضى قضاء مبرماً على هذه الظاهرة الخطيرة مهما كان الأمر. ولقد أحسن صنعاً حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق فلقد أعلن عقب توليه رئاسة الأزهر في منشور دوري أن الامتحان سوف يكون في المقرر لا في المقروء،وهذه خطوة طيبة نرجو أن تتبعها خطوات حاسمة .

هذه العوامل مجتمعة التي هي شك الطلاب في المقابل لهذه الحياة ، وعدم رضاهم عن أساليب بعض الكتب الأزهرية ، مضافاً الى ذلك هذه الظروف السياسية التي تحيط بالطلاب وتكتنفهم من كل جانب ، هذه العوامل مجتمعة أنتجت ما نرى الآن في الأزهر من تضامن ضد الرؤساء ، ومن تضامن ضد الأساتذة إن لم ينزلوا على رغبتهم فيما يقررون وفيه يشاءون . وإصلاح حال الأزهر ، أو توجيه الأزهر وجهة طيبة في هذا العصر الذري بمعالجة هذه العوامل من جهة إرضاء شعورهم بمساواتهم بغيرهم ، وبفتح وظائف جديدة لهم،وتهذيب أساليب بعض الكتب الأزهرية،وغل يد السياسة عن التدخل في أمر الأزهر . وحث الأساتذة على مضاعفة جهودهم مع الطلاب . إن أفاد كل ذلك الآن وهو مفيد قطعاً فلن يرضي أطماع الأزهر في المستقبل . ذلك أن التفكير الأزهري قد تحرر من قيود غلّ بها من قبل،فتقدم تقدماً كبيراً أصبح لا يشبعه هذا النظام التعليمي الموجود الآن في الأزهر ، وهذه الناحية ناحية

تحرر الفكر الأزهري وتقدمه في الأزهر، مضافاً اليها ما وصل اليه العالم من تقدم، هذا التقدم الذي يقرأ عنه الأزهريون كل يوم، ويشعرون ويحسون به في كل وقت، ويرون بأعينهم بعض مظاهره دائماً. هذا وذاك هو ما ينبغي أن يوجه الأزهر على ضوئه فأساس توجيه الأزهر أو أساس إصلاح الأزهر هو مسايرة التقدم الفكري وربطه بالأمة، بل ربطه بالعالم. إن ربط الأزهر بالأمة بل ربطه بالعالم هو الأساس الذي ينبغي أن يبنى عليه توجيه الأزهر، وكل ما عدا ذلك فهو علاج وقتي لا ينفع. فليست المسألة مسألة وظائف تفتح، أو وظائف تقلل، بل هي وراء ذلك وفوق كل ذلك. وأحب أن أتعجل هنا القول بأن الدين الاسلامي يجب أن يدرس كما هو، وأن يفهم كما هو، وأن كل ما سمع عن الرسول صلوات الله عليه وصح نسبته اليه ينبغي الوقوف عنده بلا زيادة ولا نقصان، ومن لم يقف فقد تعدى على الشرع وخرج عن الحق.

أما أن الفكر الأزهري قد تقدم، وقد تحرر من قيود غل بها من قبل فليس أدل على ذلك من شهادة رجلين اثنين من أعلام الفكر وكبار المشتغلين بأمر التربية والتعليم في هذا البلد وهما حضرة صاحب المعالي أستاذنا الجليل أحمد لطفي السيد باشا. وحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق شيخ الجامع الأزهر.

كان معالي احمد لطفي السيد باشا في العام الماضي رئيساً للجنة امتحان الفلسفة لطلبة تخصص المادة في كلية أصول الدين بالأزهر. وقد عينت لجنة الامتحان لكل طالب موضوعاً يحاضر فيه لمدة ساعة تقريباً وكانت الموضوعات التي حاضر فيها الطلاب هي: —

١ — أصول المعتزلة وأثرها في تطور علم الكلام.
٢ — فلاسفة الاسكندرية وأثرهم في توجيه التفكير الاسلامي.
٣ — الغزالي بين الفلسفة والتصوف.
٤ — وحدة الوجود بين الفلسفة والتصوف.
٥ — القياس بين المناطقة والفقهاء.
٦ — الآلـه عند أرسطو وتأثر فلاسفة الاسلام بذلك.

وبعد أن انتهى الامتحان قام معاليه فقال:

« أنا أحمد هذه الفرصة التي هيأها لي صديقي الأستاذ الامام الشيخ المراغي لاغتبط بلقياكم، وأرى عن كثب تقدم الازهر هذا التقدم الباهر الذي لمسته في هذه الجلسات الست

وأسارع الى تهنئتكم وأساتذتكم وتهنئة صديقي الامام بهذا التقدم الكبير .... الى أن قال :

أما اليوم فإنا نتكلم عن الله «أرسطو» وهو كما كان يرى فكرة لم يخلق شيئاً ولا يعلم شيئاً أصلاً إلا ذاته ... الخ فما معنى هذا: معناه أن الأزهر انتقل من حال الى حال كبقية كائنات العالم ولكم أن تسموا هذا استحالة أو نمواً كما تريدون ، ولكنه ليس فساداً طبعاً. الى أن قال : لقد أكثرت فأكرر تهنئتي لكم بإمامكم ومحاضريكم وأساتذكم وبتقدمكم الذي جعلنا نتكلم اليوم في إله « أرسطو » .

وقال فضيلة الاستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق وهو يقدم كتاباً لصديقي وزميلي فضيلة الشيخ محمد يوسف موسى تحت عنوان : «تطور الجوّ العلمي في الازهر » قال :

« منذ أكثر من عشرين عاماً كنت سكرتير مجلس الأزهر الأعلى والسكرتير العام للمعاهد الدينية ، وكنت بحكم منصبي متصلاً بمناهج التعليم في الازهر وما يقرر تدريسه من الكتب وأذكر أنه في ذلك العهد كان قرر تدريس كتاب « تهذيب الأخلاق » لابن مسكويه في بعض السنين الدراسية، وسرني ذلك لاني كنت أحب أن تجد كتب الفلاسفة الاسلاميين منفذاً الى المعهد الاسلامي الأكبر . ولم يمض زمن طويل حتى علمت أن المدرسين والطلاب شكوا من تدريس رسالة ابن مسكويه بحجة أنها تتضمن من الآراء والمذاهب ما يعتبر فلسفة ينبغي أن ينزّه عنها الأزهر الشريف ، وحلّ محل كتاب «تهذيب الأخلاق » رسالة صنعها بعض مدرسي الأزهر تتضمن آثاراً وحكماً ومواعظ تحث على مكارم الأخلاق وتنهى عن مساويها، وحاولت جهدي أن أدافع عن ابن مسكويه وعن كتابه فلم يجد مسعاي شيئاً. وكادت تثار حول متعتي الدينية شبهات كان لها حينذاك خطرها .. وقد اطلعت أخيراً على كتاب للاستاذ الفاضل الشيخ محمد يوسف موسى اسمه «تاريخ الأخلاق » ... والكتاب عرض عذب لتاريخ الأخلاق في الشرق القديم ، وعند الاغريق في العصور المختلفة ، وفي القرون الوسطى ، وفي الفلسفة الحديثة، وفي الاسلام عند الفلاسفة وغير الفلاسفة .

عادت بي الذاكرة حين راجعت فصول هذا الكتاب الذي يؤلفه مدرس الاخلاق بكلية أصول الدين — الى ما كان من حديث ابن مسكويه فأدركت مبلغ ما حدث من التغيير في الجوّ العلمي الازهري في أقل من ربع قرن من الزمان ، وودت أن تكون ذلك آية من آيات

الحرية الفكرية في البحث العلمي التي التمس المصلحون شيئاً منها للازهر الشريف منذ زمان، ووجدوا في سبيل مسعاهم أذًى كثيراً » انتهى كلام فضيلة الأستاذ .

وهذا التقدم الفكري جاء نتيجة لنظام الازهر الجديد الذي بذر بذرته السيد جمال الدين الافغاني وتعهده من بعده الاستاذ الامام محمد عبده والمرحوم الشيخ المراغي وتعهده الآن فضيلة الاستاذ الاكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق الذي نرجو له من قلوبنا كل توفيق في السير بالأزهر الى الامام حتى يسير مع قافلة الزمن

وهذا التقدم الفكري اتجاه طيب يبشر بمستقبل حسن وجاء بفضل ربط ثقافته القديمة بالثقافات الحديثة، فأخذ ينتج ويستقل بنفسه شيئاً فشيئاً في تدريس العلوم التي أدخلها فيه النظام الاخير، فأصبحنا نرى الكتب والرسائل توضع في بعض العلوم التي تدرس فيه بلغة جديدة ، وأسلوب جديد في تاريخ الأخلاق وفي تاريخ التشريع وفي الفلسفة ، والتاريخ وعلوم البلاغة الى غير ذلك . وأصبح فيه من يجيد الانجليزية والألمانية والفرنسية وأصبح فيه من يضع الرسائل عن الشخصيات الأجنبية، فمثلاً صديقي الدكتور محمود حب الله وضع رسالته Spinoza's Conception of Human Individuality عن « سبينوزا وهي رسالة تبين أن للانسان حقيقة واستقلالاً في نظر هذا الفيلسوف على الرغم مما قاله العلماء السابقون جميعاً من أن فلسفة سبينوزا تنفي تلك الحقيقة وهذا الاستقلال وهذا أول عمل من نوعه في تاريخ الأزهر. وأصبحنا نسمع صوت أبنائه في المجلات والصحف في أبحاث قيمة . وكل ذلك بفضل هذا التوجيه الطيب الذي وجهه إليه المغفور له الامام المراغي شيخه السابق .

وهذه باكورة طيبة غير أني لا أرى فيه الآن من يشتغل بتأليف الكتب المطولة في الشريعة مثلاً مأخوذة من منابعها الأصلية، وفي اللغة وعلوم البلاغة، وغيرها بأسلوب جديد وروح جديد يناسب روح العصر ويسد حاجتنا اليه .

***

الأزهر ذو نواح ثلاث : خلقية ، وإدارية ، وعلمية . أما الادارية فليس فيها سوى أن تسير سياسته على أساس الحق والعدل. وأن تعمل بالسياسة السياسة بمعناها الشائع المعروف وإلا فهي [illegible]

الأمر فيه فهو جامعة دينية علمية ينبغي أن تتفرغ لرسالتها على ضوء ما تقتضيه طبيعة وجوده

وأما الناحية الخلقية فليس ينفعها سوى ضرب الأمثال . لاجل أن نخرج جيلاً جديداً لا بدَّ من مثل عليا ، نعم مثل عليا في كل ناحية من مناحي الحياة وما أحوجنا نحن الى رجال كسعيد بن المسيب ، أو احمد بن حنبل ، وأخيراً كعز الدين بن عبد السلام .

ان سعيد بن المسيب دعي للبيعة للوليد ، ولسليمان ، بعد عبد الملك بن مروان . فقال : لا أبايع اثنين ما اختلف الليل والنهار ، فقيل له : ادخل من الباب واخرج من الباب الآخر . قال : والله لا يقتدى بي أحد من الناس . فجلد مائة سوط فلم ينزله هذا الجلد عن رأيه .

وأما الناحية العلمية فأحب أولاً أن أقدم لها بكلمة .

من الناس من يخاف على الأزهر كلما رأوا يداً تريد أن تمتد اليه بتغيير بعض ما ألف فيه من نظم ، ونسوا أن تغيير الأشياء أو تحولها شرط أساسي في رقيها ، وأن الأزهر شيء من هذه الأشياء وهو خاضع لقانون التغير أسوة بنواميس الكون ، وأن جمود شيء ما على صفات واحدة والعالم من حوله يتغير معناه فناء ذلك الشيء . وفي وسع أولئك الذين يخافون على الأزهر من كل تغيير يراد له في وسعهم أن يلمسوا هذا التغيير ، ولكن ليس في وسعهم أن يتجاهلوه ، وهل ينكر أحد أن الأزهر الآن غير ما كان في الماضي ؟ وسيكون في المستقبل حتماً غير ما هو عليه الآن رضي الخائفون أم لم يرضوا . عرفنا فيما سبق أن الأزهر حرَّم دراسة المنطق حتى أن السيوطي وهو علم جليل من علماء مصر ألف في ذلك كتاباً سماه « القول المشرق في تحريم الاشتغال بالمنطق » والأزهر الآن يدرس الفلسفة بما فيها المنطق بل ويتخصص بعض أبنائه فيها . ولو قال الآن فيه أحد بما قال به السيوطي من قبل لسخروا منه .

قال الأزهر في الماضي بقفل باب الاجتهاد وعرف في وقت ما التعصب المذهبي وأشد الناس حماسة للقديم فيه الآن يعتبر القول بذلك قصوراً في العقل وشذوذاً في الرأي حتى أن الأستاذ الامام المراغي رحمة الله عليه قال في العام الماضي في حديث له في جريدة الاهرام افتتح به أحاديث شهر الصوم المبارك قال بالغاء المذاهب في الفقه الاسلامي والرجوع الى القرآن الكريم مصدر هذه المذاهب ولم نسمع في الأزهر صوتاً ارتفع بانكار ذلك عليه

ومعنى ذلك أن الأزهر الآن غير ما كان في الماضي .

الأزهر فيما مضى كان يعتبر الالعاب الرياضية حدثاً لا يتفق وكرامة طالب العلم حتى أني أذكر وأنا طالب في السنة الأولى من القسم الثانوي أنا اتفقنا بصفة أصدقاء على إنشاء نادٍ رياضي نمارس فيه ألعاب الرياضة ، فلما علم بذلك شيخ القسم يومئذٍ رحمة الله عليه أحضرنا وأخذ علينا تعهداً بالاقلاع عن هذه الفكرة وإلاّ نزل بنا ما لا يحمد عقباه . والتدريب العسكري الآن في الأزهر حصة رسمية يشرف عليها أولو الأمر فيه .

وأذكر حتى وأنا في التخصص وأظن ذلك كان في سنة ١٩٢٧ أو ١٩٢٨ لا أذكر جلس أستاذنا يلقي درسه ونحن أمامه نستمع وأخذ يشرح لنا حديثاً نبوياً شريفاً في باب عنوانه « باب احترام العلماء » وأخذ رضوان الله عليه يخرج الألف واللام في العلماء وهل هي للجنس فيكون مدخولها الحقيقة من حيث هي أو للعهد الخارجي ومدخولها فرد معين من أفراد الحقيقة ، أو للعهد الذهني ومدخولها فرد مبهم من أفراد الحقيقة . أو للاستغراق ومدخولها كل أفراد الحقيقة . وانتهى به المطاف إلى أن الألف واللام ها هنا للعهد والمعهود هم ....

فسألته ويذكر ذلك جيداً بعض إخواني وهم الآن من مدرّسي المعاهد الدينية سألته يا مولانا ألا يحترم فلان .... العالم القانوني الضليع . وفلان .... المهندس الكبير ؟

وخشيت أن أذكر له « غاليليو » أو « اديسون » مثلاً ممن لهم فضل على الانسانية لا ينكر فثارت ثائرته عليّ رضوان الله عليه وأسكنه فسيح جناته .

وعلى الجملة فالفكر الأزهري الآن أخذ يتحرّر من سلطان ما حسبه بعض الناس ديناً وهو عند الله ليس بدين . وأخذ يتجه اتجاهاً طيباً بالقياس الى ما كان عليه من قبل ، فطلبة الأزهر الآن فيهم حيوية فتية ، وفيهم استعداد وثاب للتمشي مع روح العصر بما لا يتعارض مع ما ورثنا من عرف صحيح ، ولكن كل ذلك مقفل عليه في صندوق فما هو إلاّ أن يفتح وأخشى أن يكسر . لذلك أرى أولا .

١ — القضاء على تلك الظاهرة الخطيرة ظاهرة الامتحان في المقرر لا في المقرر . والسير بالطلاب في جو ملائم الى النهاية التي لأجلها كان الأزهر

٢ — وضع أصل للغرض والغاية من التعليم في الأزهر يسير على هداه الأساتذة والطلاب وتنفيذه بكل دقة وعناية .

٣ — النظر في أمر الكتب التي تدرس في الأزهر « على ضوء ما تقدم » .

٤ — إعطاء الأساتذة حق الاشراف على الطلاب في تقويم الأخلاق ، والطباع والنفوس فلا يصح اعطاؤهم حق تقويم العقول واهمال هذه النواحي التي تتصل برسالة الأزهر أولاً وقبل كل شيء. ومن وسائل ذلك :

ا — الاكثار من الاجتماعات التي يشترك فيها الأساتذة والطلاب لاشتراك صداقة واخوة . ب — وفتح أندية رياضية للطلاب وأخرى للطلاب والأساتذة ولا يشترك في الأخيرة الا من اجتمعت فيه شروط خاصة كالتفوق في الألعاب الرياضية ، أو التفوق في العلم وأنا على ثقة من أن الأندية الرياضية اذا فتحت ابوابها للازهريين سيرون منهم فرقاً رياضية ممتازة تفخر بها مصر .

٥ — جعل الرياضة البدنية مادة من مواد الدراسة في المعاهد .

٦ — أن يجعل في الكليات نظام المحاضرات العامة يقوم بها الأساتذة ويدعى اليها الاخصائيون في النواحي المختلفة من رجالات الأمة والجامعات . وبهذه المناسبة أقول إن هذه المحاضرات أشبه شيء بالأزهر القديم فلنعده فيها على أن تسجل هذه المحاضرات

٧ — تكوين جماعات لما يأتي : —

ا — للترجمة وبخاصة فيما يرى أن المكتبة الأزهرية فقيرة فيه . ب — لنشر الكتب على نحو يسهل للباحث مهمته . وما أحوجنا في هذه الناحية الى مجهود كمجهود المستشرقين في نشر بعض كتبنا . ج — لعمل قواميس في المصطلحات المختلفة التي تمس حياة الأزهر

٨ — تشجيع المؤلفين وقصر من يبرع فيه عليه نفسه .

٩ — ربط الأزهر بالبيئات العلمية المختلفة وذلك يكون بمواصلة البعوث للتخصص في العلوم والفنون المختلفة التي تثمر رسالتنا ومحاضرة في تاريخ الأديان والمقارنة بينها وفي

القانون وفي اللغتين الفارسية ، والعبرية . ويعمل على أن تدرس كلية أصول الدين تاريخ الأديان والمقارنة بينها . ويدرس القانون في كلية الشريعة نواة لايجاد متخصصين في الفقه الاسلامي مقارناً بغيره من الشرائع وتدرس اللغتين السابقتين في كلية اللغة . نواة لمتخصصين أيضاً في هاتين اللغتين .

١٠ — القيام برحلات ثقافية الى الأقطار الشقيقة وغيرها وبخاصة الى مهبط الوحي ومهد العربية .

١١ — العمل على أن تكون الجامعة الأزهرية هي المصدر الأول في التخصص في التاريخ الاسلامي وأدب اللغة العربية . ثم نحن نتخصص عند غيرنا في طرق البحث ، ولكن هل هناك ما يمنع من أن نكون نحن المصدر الأول .

١٢ — تدريس لغة أجنبية في الأزهر ابتداء من السنة الأولى بالقسم الثانوي .

١٣ — حيث انه ليس في الامكان قصر الزي الأزهري على أبنائه فحسب فليجعل زي جامعي خاص للازهر يختلف باختلاف الدرجات العلمية .

١٤ — العناية بالمكتبات في المعاهد والكليات عناية تحقق الغرض منها .

١٥ — حيث إن الحرب قد أوقفت مشروع بناء المدينة الجامعية الأزهرية فلا أقل من الاسراع الآن ببناء القاعة العامة للمحاضرات وأملنا كبير في إحياء المشروع حتى تضاعف خطوات الأزهر الى الأمام .

وفيما يختص بخدمة الأزهر للمجتمع أرى أن توجه خطبة الجمعة في جميع مساجد القرى والمدن توجيهاً جديداً أساسه إيجاد الخطيب أولاً ، ثم توجيه الشعب فيها الى القيم الروحية والى الزراعة والصحة على أن يكون هذا الخطيب متصلاً برجال الزراعة والصحة ليستطيع أن يبين للمجتمعين المجد فيثني عليه ، والمقصر فيستنهضه ، وذلك يستدعي وضع برنامج عام شامل لاصلاح القرية ، على أن يعنى عناية تامة بمسألتين اثنتين : وهما النظافة ، والنظام . ولست في حاجة الى القول بأن هذه الخطبة لو وجهت لتؤدي غرض الشارع منها لتحولت قرى الريف ومدنه تحولات عظيمة في وقت قصير .

هذا بحث قدمته خالصاً لوجه الله والعلم ولم يبعثني عليه سوى حبي للخير وغيرتي على الأزهر وما أريد إلا الاصلاح . ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً .

فهرس الكتاب

٣ — تصدير
٧ — مقدمة
١٠ — كلمة عن تاريخه المادي
١٢ — كلمة عن الحركة العلمية الاسلامية بمصر قبل أن يكون الازهر
١٦ — كلمة عن تاريخه العلمي
٢٧ — كلمة عن انتاج الازهر
٣٣ — تصدير السيوطي (مثل عن البحث والدرس في ذلك العصر)
٤٠ — نظام التعليم القديم في الازهر
٤٣ — تحريم الاشتغال بالمنطق والنهي عن التأليف
٤٦ — أشهر الكتب التي تدرس في الازهر
٥١ — خطوات الازهر
٥٦ — مراحل التعليم في الازهر والعلوم التي تدرس فيه
٥٧ — الشهادات
٥٨ — مجلس الازهر الأعلى
٥٩ — المعاهد الدينية
٦٠ — فضيلة الاستاذ الاكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق
٦٤ — شيوخ الازهر
٧٠ — طلبة الازهر
٧١ — خريجو الازهر
٧١ — ميزانية الازهر
٧٤ — مكتبة الازهر
٧٦ — الاتجاه الحديث للازهر وكيف ينبغي أن يكون

فك الاغلال

بحث في الثقافة التقليدية وعلاقتها بالتربية القومية

بقلم اسماعيل مظهر — ظهر مع مقتطف يناير ١٩٤٦

—

الالوهية والفكر

بحث في العقائد المألوفة

مترجم بقلم اسماعيل مظهر عن لورد بلفور

وهو بحث مثبت للالوهية ناف لما يدعيه بعض الماديين

من أن في المادة الطبيعية قصداً اوما يشبه القصد

ظهر مع مقتطف فبراير ١٩٤٦

—

الفريد دي موسيه

شاعر الحياة والالم

بقلم الاستاذ صلاح الدين الشريف ظهر مع مقتطف مارس ١٩٤٦

—

الازهر

بين الماضي والحاضر

بحث في تاريخ الازهر الشريف وتطوره ومنزلته العلمية

والدينية واتصاله بحياة الاسلام من قلم الاستاذ منصور

علي رجب المدرس بكلية أصول الدين

مع مقتطف ابريل سنة ١٩٤٦

—

سبينوزا

حياته وفلسفته — عرض وتحليل —

تأليف هنري سرويا — ترجمة سليم سعده

يظهر مع مقتطف مايو ١٩٤٦

اطلبها مع مقتطف أبريل وثمن النسخة ١٠ قروش